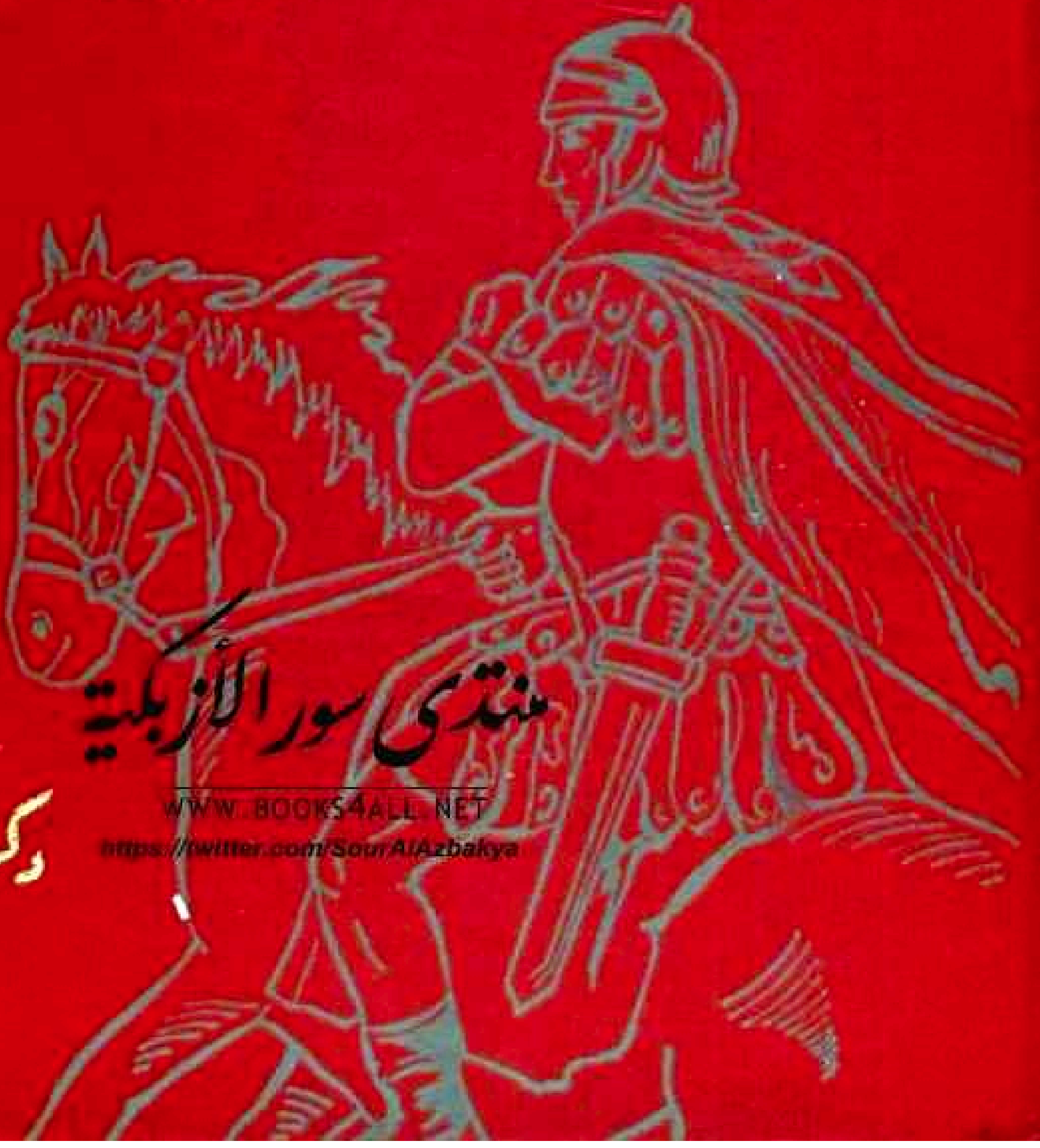
منشورات جامعة بنغازي

الدولة البيزنطية

في عصر پاليولوغوس
١٢٦١ - ١٢٨٢



دكتور اسحق عبيد

منشورات جامعة بنغازي

الدولة البيزنطية في عصر پاليولوغوس

(١٢٦١ – ١٢٨٢)

دكتور إسحق عبيد

أستاذ العصور الوسطى المساعد

جامعة عين شمس – جامعة بنغـازي

مطبعة دار الكتب ، بيروت – لبنـــان

الدولة البيزنطية
في عصر باليولوغوس

المحتويات

Whether 'tis nobler in the mind to suffer
The slings and arrows of outrageous fortune,
Or to take arms against a sea of troubles,
And by opposing end them ? —— To die, —— to sleep,
No more; and by a sleep to say we end
The heart-ache, and the thousand natural shocks
That flesh is heir to, — 'tis consummation
Devoutly to be wished.

(Hamlet)

المقدّمة

أثارت شخصية ميخائيل الثامن پاليولوغوس اهتمامي الشديد أثناء قيامي بدراسة وتدريس تاريخ الدولة البيزنطية في عصرها المتأخر . ولقد وجدته أشبه ما يكون بالربان على ظهر سفينة غارقة ؛ يقدم على درب المستحيل على أمل إنقاذ ما يمكن إنقاذه للبيزنطيين : لقد تسلم مقاليد الأمور ، بعد مغامرات خطرة ، لحكومة هزيلة أقامها الفارون من وجه الغزو الصليبي للقسطنطينية في المنفى في بلدة نيقيا بآسيا الصغرى . وكان عليه من هذا الموقع أن يجابه صنوفاً من التحدي القاسي ؛ من جانب الفرنجة وحلفائهم البنادقة الذين احتلوا العاصمة البيزنطية تحت شعار الصليب وبتأييد من البابوية ، ومن جانب فرسان الفرنجة الذين نهبوا البلقان وأقاموا لأنفسهم إمارات إقطاعية على حساب حقوق أصحابها الأصليين ، ثم من جانب نفر من بني جلدته الذين أقاموا بدورهم حكومات انفصالية في طرابيزوند وابيروس .

ثم جاءت المصائب تترى في عهده متمثلة تارة في زحوف المغول المدمرة على الشرق الأوسط والأدنى ، وأخرى في المخططات العدائية من جانب ملوك صقلية من بيت الهوهنشتاوفن الألمان ، ومن بعدهم من جانب أمراء البيت المالك الفرنسي من جماعة آنجو . ومن وراء هؤلاء وأولئك كانت البابوية تحرك المؤامرات ضد بيزنطة بالعلانية .

وقد قبل ياليولوغوس كل هذه التحديات الواحدة بعد الأخرى ، وأحيانا كان عليه أن يجابهها مجتمعة في آن واحد . ووسط هذه الصعاب كان عليه أيضا أن يدرأ عن ظهره كيد السلاجقة الأتراك، وغدر خانات الصرب والبلغار. ولما أن ضاقت الدنيا في وجهه تلفت إلى روما يعزف للفاتيكان على وتر حساس ويتوسل إلى البابا أن يتدخل ليجنبه وشعبه مكائد أبالسة الغرب اللاتيني . فطلب البابا الثمن وكان باهظاً وخطيراً ، وأذعن ياليولوغوس وذهب ممثلوه إلى مجمع ليون الثاني سنة ١٢٧٤ وأعلنوا خضوع الكنيسة البيزنطية للسلطان البابوي ، وألقت الحكومة البيزنطية عن طريق سفرائها بقانون الايمان الارثوذكسي وبالكرامة البيزنطية جميعا تحت أقدام كرادلة ليون . وفزع الرأي العام في بيزنطة واستمطره الخاصة والعامة كل اللعنة ، وتنكر له أهل بيته ، وتحفز الانفصاليون ليدمغوا ياليولوغوس بالهرطقة !

ثم ما لبثت البابوية أن تنكرت للرجل ، وتحالفت مع أعداءه من امراء الغرب وفرسان آخايا الصليبيين ، بل إنها لم تتورع عن صب لعنة الحرمان على رأسه . وبات ياليولوغوس يكتوي بنار الغرب وخسة امرائه وكرادلته وبتشفي الأهل به لما أصابه من خذلان مع الرومان .

ورغم كل هذه المحن فإن ياليولوغوس لم يلق السلاح ، بل إنه ظل يجاهد في بسالة نادرة حتى أنقذ بيزنطة من نسيج مخيف من المؤامرات التي كانت تحاك ضدها في أروقة الفاتيكان وفي صالونات باريس وآنجو، وفي خيام المغول وفي دور السلاطين السلاجقة . ومن هذا الواقع وجدتني أشبه ياليولوغوس في مستهل كتابي بالبطل المأساوي هملت ؛ لأنه وبحق قد أصر على « حمل السلاح ضد بحور من الآلام والصعاب » .

على أنني لا أود من القارىء أن يقفز سريعاً ليستنتج أني اؤمن بأن التاريخ من صنع بعض الأفراد ، فليس هذا قصدي ولا هو مذهبي . فلو أن ميخائيل ياليولوغوس لم يولد ، لظهر من بين البيزنطيين من كان سوف يقوم بدور

ميخائيل في تجسيد آمال البيزنطيين الذين كانوا يرنون بأبصارهم من المنفى نحو تحقيق الحلم الغالي ألا وهو استرداد مدينة قسطنطين العظيمة وطرد الغاصبين ، فالبطل ، أو « المخلص » إن شئت ، هو الذي يستبصر أحداث عصره ويجسد آمال ذويه ويتحرك معهم ، وإن كان أمامهم ، نحو الغايات النبيلة . لقد ارتفع باليولوغوس إلى مستوى تحديات زمانه ، فأصاب الكثير من النجاح ، ولئن كانت جهوده قد أتت بحصاد هش في نهاية العصر فليس هذا ذنبه ، لأن ما كان قد تبقى لبيزنطة من قدرة على الاستجابة لم يكن بحال ليقاس بحجم تلك التحديات . ولذا فإن هذا الامبراطور كان يحارب قضية خاسرة ، ولكنها كانت وستظل قضية نبيلة اسمها « الخلاص » . لقد شاخت بيزنطة في صدر شباب باليولوغوس في تلك الحقبة من أواخر القرن الثالث عشر ، فقارب عمرها ألف عام تقريباً ، وباتت الأصابع تشير إليها على أنها « رجل أوربا المريض » . ومن هنا فإن المهمة التي أقدم عليها باليولوغوس في معالجة «المسألة البيزنطية» كانت مهمة قاسية ورهيبة . ولكن الدرس الذي نقدمه من خلال هذا القائد هو درس الإصرار ومجابهة التحدي باستجابات تتحداه رغم كل الظروف .

ونود أن ننبه في النهاية إلى أن المعاناة التي كابدتها بيزنطة ابتداء من سنة ١٢٠٤ كانت في الدرجة الأولى من صنع غرب أوربا المسيحي . على أنه يجب أن يتحمل البيزنطيون أنفسهم نفس القدر من التبعة . لقد دمر الصليبيون معنويات بيزنطة وامتصوا دماء رجالها ونهبوا خيرات أرضها وحرثها . أما البيزنطيون فقد تفتت قوة مقاومتهم وشلت فاعليتهم عندما تناحروا وتطاحنوا في حروب أهلية ، إلى حد أن ثلاثة من أمرائهم كانوا يتلقبون باللقب الامبراطوري في آن واحد ، ومن ثلاثة مواقع متعادية : في نيقيا وطرابيزوند وأبيروس . وضاع المال وهلك الرجال من فعل أبناء البيت الواحد ، فكان لا بد لهذا البيت أن ينهار على أهل البيت . لقد بلغ عجز الرؤية عند بعض البيزنطيين إلى حد استعداء الصليبيين تارة والبلغار أخرى والأتراك ثالثة على الجالس على

عرش البوسفور بقصد خلعه واغتصاب التاج . نعم لقد حقن ياليولوغوس بيزنطه بجرعة من الدم الجديد مدت من عمرها مائتي عاما تقريبا ، ولكنها كانت أعواما من الموت البطيء ، وكانت النهاية المحتومة واضحة في الأفق لمن يريد أن يتبينها . ولم يكن عسيراً على السلطان محمد الفاتح في ٢٩ مايو ١٤٥٣ أن يدخل مدينة قسطنطين ويعلن زوال الامبراطورية الرومانية الشرقية من الوجود وإلى الأبد .

لقد سقطت بيزنطة من الداخل ، ولم يكن للترك حتى مجرد شرف الإجهاز عليها ، لقد كانت كالمخلوق الذي قد انتحر .

* * *

الفصل الأول

بيزنطة تحت أقدام الصليبيين
(١٢٠٤ – ١٢٦١ م)

« أيتها المدينة المدينة ، يا زهرة المدائن ، يا حديث المسكونة ونبع الارثوذكسية ، يا قلعة العلم ، وملاذ كل الخير ! لقد تجرعت الكأس حتى الثمالة ، واكتويت بنار أشد لظى من اللهب التي حطت بالمدائن الخمس » .

(نيكيتاس كونياتس)

* * *

سقطت بيزنطة في أيدي رجال الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م ، نتيجة لمؤامرة دبرها قادة الحملة وعلى رأسهم بلدوين كونت فلاندرز ، وبونيفاس ماركيز مونت فرات ، أوهنري داندولو دوج البندقية . وكانت البابوية قد باركت هذا الغزو الصليبي لإمبراطورية كريهة على العقلية اللاتينية ؛ ولذا فإنا نجد البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦ م) يشيد في رسائله إلى قادة الحملة بغزوهم للقسطنطينية ويعتبره فتحا عظيما ونصراً للبابوية نفسها على « امبراطورية منحرفة وكنيسة ضالة» . وبهذا حققت البابوية هدفا خطط

له البابوات تباعاً منذ بداية القرن الحادي عشر . والواقع أنه منذ أن حدث الشقاق الأكبر بين الكنيستين سنة ١٠٥٤ م راح الكرسي الروماني يتوعد سيد البوسفور وأحبار أياصوفيا بالتهديد والوعيد ؛ لأنهم قد شقوا عصا الطاعة على أمير الكنيسة العالمية — البابا نفسه — ولأنهم قد ترددوا في الهرطقة الواحدة وراء الأخرى . وهذا ادعاء كاذب لا تؤيده سجلات العصر الوسيط [١] .

وبعد نهب القسطنطينية من كل نفيس ، وبعد أن أجلس سكارى الفرنجة راقصة مبتذلة على عرش البطريركية ، جلسوا لتوزيع الغنائم . ومع أن أشياء كثيرة قد سرقت وأخفيت ، فقد أحرزوا غنائم قيمتها تعادل ٨٠٠,٠٠٠ جنيها من الذهب . وقد أضيف إلى هذا آيات الفن النادرة التي كانت في المدينة منذ عهد قسطنطين العظيم وخلفائه . ويعطينا نيكيتاس كونياتس ، وهو شاهد عيان ، قائمة بالآثار التي دمرها الصليبيون وصهروها لتحويلها إلى عملات ؛ والتي كان من بينها التمثال البرونزي للذئب وروميلوس وريموس ، وتمثال پارس مع التفاحة الذهبية ، وهيلين الطروادية ، والتماثيل النحاسية التي أقامها اغسطس بعد واقعة أكتيوم . وتناول هذا الجرم الصليبي أيضا آيات الفن المسيحي ، كما نبش رعاع الفرنجة قبور الأباطرة ومذابح الكنائس لنهب ما فيها من معدن نفيس . وعلى هذه الشاكلة القبيحة حقق الصليبيون « أعظم الفتوح ، دونه مجد ذي القرنين وسلطان شرلمان » ، كما تقرر المصادر الغربية ؛ في حين أن أهل بيزنطة باتوا ينوحون مع نيكيتاس كونياتس على زهرة المدائن [٢] .

واختار الصليبيون فرنجيا من قادتهم هو بلدوين من فلاندرز وتوجوه امبراطوراً على بيزنطة ، وقد خصص له ربع أراضي الدولة « دومينا » للتاج . أما عن البنادقة فقد حصلوا على نصف ما تبقى من الأرض ، ووزع الفائض

(١) أنظر كتاب « روما وبيزنطة » ، اسحق عبيد ، ص ص ٢١ — ٣٩ .
(2) Nicetas Choniates, Historia (Bonn ed.), p. 763.

على فرسان الحملة « إقطاعاً » من الامبراطور للأفصال ، وفق التقاليد الإقطاعية السائدة في الغرب اللاتيني . أما عن الماركيز بونيفاس دي مونت فرات فقد عرضت عليه بعض الأراضي في اسيا الصغرى ولكنه فضل أن يحصل على نصيبه في الجانب الأوربي فاستولى على سالونكا وأسس فيها مملكة ضمت الأراضي المتاخمة في مقدونيا وتساليا .

كانت الأراضي التي استحوذ عليها الامبراطور اللاتيني الأول لبيزنطة المنكسرة موزعة بين مقدونيا وشمال غربي اسيا الصغرى ، فشملت بذلك جانبي البسفور والدردنيل ، بالإضافة إلى بعض الجزر الهامة في بحر إيجه من بينها لسبوس وخيوس وساموس .

أما البنادقة ، الذين كانوا يهتمون في الدرجة الأولى بالمواني لممارسة نشاطهم التجاري ، فقد استولوا على ايبروس ، أكارنانيا ، ائتوليا ، دورازو ، راجوزة ، كورون ، مودون ، أيونيا ، كريت ، يوبويا ، اندروس ، ناكسوس ، جاليبولي ، رادستوس ، هراقلية ثم أدرنة .

وحتى العاصمة نفسها – القسطنطينية – قد مزقت ، وحصل الامبراطور على خمسة أثمانها ، وترك للبنادقة الباقي . ثم اغتصب عرش البطريركية البيزنطية أسقف من البندقية هو موروسيني ، الذي استبد برجال الدين البيزنطيين وحقر من طقوسهم ، فهرب غالبيتهم من ابروشياتهم يتلمسون العزاء عند حكومات المنفى في اسيا الصغرى وفي البلقان ، على أمل العودة . وكان من أول الفارين البطريرك نفسه يوحنا كماتيروس الذي لجأ إلى بلغارية واعتزل منصبه .

كانت الامبراطورية اللاتينية التي أقامها الفرنجة على الأرض البيزنطية المغتصبة تشكل خليطاً من أنظمة الإقطاع المنتشرة في الغرب الأوربي ، فكانت إقطاعات شبه مستقلة يحكمها أفصال يتبعون الامبراطور تبعية اسمية ، وقد وضح ذلك على وجه الخصوص في أواسط وجنوبي بلاد اليونان حيث كان

الأفصال الإقطاعيون قد أدوا يمين الولاء والطاعة لا للامبراطور وإنما للماركيز بونيفاس دي مونت فرات الذي نصب نفسه ملكا على سالونكا . ولم يكتف بونيفاس بهذا النفوذ على حساب الامبراطور ، وإنما زحف على رأس فرسانه على أثينا ومنح السيادة الإقطاعية على أتيكا وبوءوتيا إلى واحد من أتباعه هو أوتو دي لاروش البرغندي . كذلك أذن بونيفاس إلى فارسين مغامرين هما وليم من شامپليت وجيوفري من ڤلهاردوان بغزو شبه جزيرة البلوبونيز وتحويلها إلى إقطاع فرنجي . ونجح الفارسان في مهمتهما ، وبذلك قامت الإمارات الإقطاعية الفرنجية على أرض المورة (آخايا) ، وأصبحت هذه هي أهم الإقطاعات في الامبراطورية على عهد الحكم الصليبي ، فقد كانت صورة طبق الأصل للنظم الإقطاعية السائدة في فرنسا ؛ التي هي البيت الأول لإقطاع العصور الوسطى .

أمام هذه الموجات المتتالية من الغزو الفرنجي للولايات البيزنطية ، فر الكثيرون من وجه الغزاة وتجمعوا حول بعض النبلاء الوطنيين ثم أقاموا حكومات في المنفى ؛ ظلت تكافح بغية تحقيق حلم غال وهو تحرير الأرض البيزنطية : ففي آسيا الصغرى أسس تيودور لاسكاريدس (لاسكارس) — وهو زوج ابنة الامبراطور الأسبق الكسيوس الثالث انجيلوس الذي خلعه الصليبيون — حكومة في نيقيا سرعان ما عرفت باسم امبراطورية نيقيا .

وفي غربي بلاد اليونان أقام ميخائيل انجيلوس — وهو ابن عم الكسيوس الثالث سالف الذكر — دولة في ابيروس . كذلك قامت حكومة بيزنطية ثالثة في طرابيزوند جنوب شرقي البحر الأسود ؛ قبيل سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين . وقد أسس هذه الدولة أميران من بيت كومنين هما الأخوان الكسيوس وداود ، وهما حفيدا اندرونيكوس كومنين . وقد نقل هذان الحفيدان عقب مقتل جدهما إلى بلاط مملكة جورجيا ، حيث تبنت قضيتهما الملكة الأم تامار (١١٨٢ — ١٢١٢ م) وساعدتهما في الاستيلاء على طرابيزوند سنة ١٢٠٤ م . وتمكن الأخ الأصغر داود من الاستيلاء

أيضا على سينوب وبفلاجونيا وهرقلية ، وضمها جميعا إلى تاجه في طرابيزوند .

وإلى جانب هذه الحكومات البيزنطية الثلاث الكبرى نجح نفر آخر من النبلاء البيزنطيين في إقامة إمارات صغيرة في آسيا الصغرى يحكمونها بأنفسهم : ومن بين هؤلاء تيودور مانكافيس الذي أعلن استقلاله بمنطقة فلادلفيا ، ومانويل ماوروزوميس الذي استقل بالأراضي الواقعة في وادي نهر مياندر ، ثم ساباس اسيدنيوس الذي انفرد بمنطقة سمسون على مقربة من ملطية .

كانت أقوى هذه الحكومات البيزنطية جميعا حكومة نيقيا بزعامة تيودور لاسكارس . وكان الامبراطور اللاتيني بلدوين قد وعد صديقه وزميله في الحملة الصليبية الرابعة الكونت لويس من بلوا بأن يقطعه نيقيا إن هو نجح في الاستيلاء عليها من أيدي لاسكارس . وقد قاد لويس وهنري – شقيق بلدوين – جيشاً ضد لاسكارس وذلك قرب نهاية سنة ١٢٠٤ م . واشتبك الفرنجة مع جيش لاسكارس عند بلدة بويمانينون ، وسقطت معظم مدن بثينيا في أيدي الفرنجة . وبدا أن أمل البيزنطيين في امتلاك اسيا الصغرى قد انتهى تماماً ، لولا أن كارثة لحقت بالجيش الفرنجي الأكبر بقيادة الامبراطور في البلقان ، وجاءت تلك الأنباء فاضطر هنري ولويس إلى التراجع عن آسيا الصغرى .

كان الفرنجة الذين احتلوا تراقيا قد تقاسموا أرضها إقطاعاً على حساب أصحابها البيزنطيين . على أنهم سرعان ما وقعوا في خلاف مع كالوجان ملك البلغار ، جارهم القوي . وكان كالوجان قد رحب بأصحاب الأرض البيزنطيين الذين فقدوا ممتلكاتهم ، وتبنى قضيتهم خاصة بعد أن أبدى البيزنطيون استعدادهم لتتويجه امبراطوراً عليهم إن هو حرر الأرض البيزنطية من الفرنجة .

هجم الخان البلغارى والثوار البيزنطيون على الفرنجة في ديديموتيخوس التابعة لبولدوين ، وفي أدرنة التابعة للبندقية ، وعلى بعض المدن الأخرى في تراقيا ، فقتلوا عدداً وافراً من الفرنجة وفر البعض الآخر . وبعد أن نجح

الخان البلغارى في غزو تراقيا ، طوق الجيش الفرنجي بقيادة بولدوين عند أدرنة في ١٤ أبريل سنة ١٢٠٥ م ، وأوقع به هزيمة نكراء ، وسقط الامبراطور اللاتيني أسيراً في يد خان البلغار ، واختفى بلدوين من صفحات التاريخ ، فنحن لا نكاد نعرف شيئاً عن مصيره بعد ذلك اليوم . وقد هلك العديد من فرسان الفرنجة في ميدان المعركة ذاتها ، ومن بينهم الكونت لويس من بلوا الذي كان يتأهب – منذ وقت قليل – للاستيلاء على نيقيا من أيدي لاسكارس في آسيا الصغرى . وهكذا فإنه بعد عام واحد من الغزو اللاتيني لبيزنطة انهار الجيش الفرنجي تماماً على يد جيش البلغار وقبائل الكومان .

وقد أنقذت هذه الكارثة التي حلت بالفرنجة لاسكارس صاحب نيقيا ، الذي انتهز الفرصة وسيطر على معظم أراضي اسيا الصغرى التي كانت قد سقطت في أيدي الفرنجة ، ولم يبق لهم فيها سوى مدينة واحدة هي بيجاي (Pegae) . ثم أخذ لاسكارس في تنظيم شئون دولته ، متبعاً في ذلك نفس التنظيمات البيزنطية التقليدية في الحكم والإدارة والجيش والبلاط ، ثم عين بطريركا للعاصمة ، وتوجه البطريرك الجديد في حفل ديني كبير سنة ١٢٠٨ م على أنه « امبراطور بيزنطة » .

أما بالنسبة للامبراطورية الصليبية في القسطنطينية ، فإنه بعد اختفاء بلدوين أسيراً في يد خان البلغار ، توج شقيقه هنري خلفاً له . وقد نجح هنري في استرجاع تراقيا ، وفي نهاية سنة ١٢٠٦ م قاد حملة ضد لاسكارس في آسيا الصغرى . غير أن الخان البلغارى عاود هجومه على البلقان ، فاضطر هنري إلى عقد هدنة مع لاسكارس لمدة عامين ، وذلك في ربيع سنة ١٢٠٧ م . وفي أكتوبر من نفس العام قتل الخان البلغارى كالوجان أثناء حصاره لمدينة سالونكا . ولا شك في أن كالوجان كان صاحب الفضل الأكبر في إنقاذ حكومة المنفى في نيقيا وسيدها لاسكارس من هلاك محقق على أيدي اللاتين ، وقد كان يحلو للخان البلغارى أن يخاطبه الناس بلقب « جزار الفرنجة » .

على أن حكومة نيقيا لم يكن عليها أن تصارع اللاتين فحسب . وإنما كان عليها أيضا أن تقاتل ضد سلطنة قونية التركية . فإلى جانب العداوة التقليدية بين الترك والبيزنطيين ، عمل هنري داندولو دوج البندقية على أن يعقد حلفاً مع الأتراك في آسيا الصغرى ضد امبراطورية نيقيا في سنة ١٢٠٩ م . وتحرك لاسكارس فأبرم حلفا مع ليون الثالث ملك أرمينيا الصغرى ـ في قليقيا ـ ضد الأتراك . وقد زاد من توتر الموقف بين نيقيا وقونية أن الكسيوس الثالث انجيلوس ـ الامبراطور البيزنطي الذي كان الصليبيون قد خلعوه عن العرش سنة ١٢٠٤ م ـ قد لجأ إلى بلاط السلطان التركي في قونية وطلب منه أن يعينه في إعادته إلى العرش البيزنطي الذي قد « اغتصبه » الآن زوج ابنته لاسكارس في نيقيا . ودار القتال بين الأتراك والبيزنطيين على مقربة من انطاكية سنة ١٢١١ م ، وانتصر لاسكارس على السلطان السلجوقي كيكاوس الأول في المعركة ، ووقع الكسيوس الثالث انجيلوس — ضيف السلطان — أسيراً ، فألقى به زوج ابنته في السجن ليقضي فيه بقية حياته .

لم يهدأ الصراع بين هنري الامبراطور الصليبي للقسطنطينية وبين لاسكارس سيد نيقيا . ففي ١٥ أكتوبر سنة ١٢١١ م هجم الجيش الصليبي على جيش نيقيا وألحق به هزائم متلاحقة على ضفاف نهر رنداكوس (Rhyndacus) وعند برغامة وفي نمفايوم (Numphaeum) . واضطر لاسكارس إلى عقد الصلح مع هنري ، وبمقتضى ذلك احتفظ الصليبيون بالركن الشمالي الغربي من اسيا الصغرى حتى بلدة أدرامتيوم (Adramyttium) في الجنوب ، وترك الجزء المتبقي والممتد حتى الحدود مع السلاجقة إلى حكومة نيقيا . وهكذا اعترف الامبراطوران واحدهما بالآخر ؛ لأن واحداً لم يستطع القضاء على الثاني .

أفادت هذه المعاهدة حكومة نيقيا بأن سمحت لها بفترة من السلام مع الصليبيين . وقد عزز هذا الصلح زواج لاسكارس — للمرة الثالثة — من أميرة لاتينية هي ماري ابنة أخت الامبراطور هنري . وفي أغسطس ١٢١٩ م عقد

لاسكارس صلحاً مع البندقية وسمح لها بامتيازات تجارية في امبراطوريته . ونلاحظ أن لاسكارس يخلع على نفسه في وثائق تلك الفترة اللقب الآتي

« Theodorus in Christo Deo fidelis imperator et moderator Romanorum (Graecorum) et semper augustus Commanus Lascarus. »

وكان من بين النتائج الهامة للسلام الذي ساد بين نيقيا والصليبيين أن انهارت مطالب آل كومنين – سادة طرابيزوند – في العرش البيزنطي ، وفي سنة ١٢١٤ م نجح لاسكارس في ضم هرقليا وآماستريس إلى إمبراطوريته ولكن السلاجقة تدخلوا في الموقف واستولوا على سينوب وتوجوا صديقهم الكسيوس كومنين (الأصغر) على عرش طرابيزوند على أن يكون فصلاً لسلطان قونية . وظلت امبراطورية طرابيزوند منعزلة عن العالم البيزنطي الحقيقي ، ولم تشارك البيزنطيين في استرداد القسطنطينية ولم تتدخل من قريب أو بعيد ، مؤثرة الانعزالية ، فمهدت بهذا المسلك لسقوطها الأخير في أيدي العثمانيين .

أما عن حكومة المنفى البيزنطية الأخرى فهي مملكة ابيروس التي أسسها ميخائيل انجيلوس في المنطقة الواقعة بين دورازو وخليج كورنثة . وكانت تضم إلى جانب ابيروس كلاً من اكارنانيا وائيتوليا . ومن موقعها هذا راحت حكومة ابيروس تناهض مملكة بونيفاس دي مونت فرات الصليبية التي قامت اغتصاباً في الجانب الشرقي من البلقان ، في سالونكا . كذلك كان على صاحب ابيروس أن يصارع البنادقة الذين سيطروا على البحر الأدرياتي ، وأن يجاهد ضد السلاف في الشمال والشمال الشرقي لحدود مملكته . وكان هدف سيد ابيروس الأسمى أن يتم تحرير القسطنطينية على يده ، وهو نفس الهدف الذي كان يسعى إليه تيودور لاسكارس في نيقيا . في سنة ١٢١٥ م توفي ميخائيل انجيلوس فخلفه في حكم ابيروس أخوه تيودور . وكان هذا الأخير قد أقام بعضا من الوقت في بلاط نيقيا ؛ حيث أقسم يمين الولاء والطاعة لسميه تيودور لاسكارس . ولكن ما أن اعتلى تيودور انجيلوس عرش ابيروس

حتى تنكر للقسم الذي كان قد أداه . فكان لا بد من احتدام الصراع بين الطرفين .

والواقع أن تيودور انجيلوس قد حقق لنفسه ولمملكته في ابيروس شهرة طائلة طغت على شهرة لاسكارس نفسه : فقد علم بقدوم امبراطور صليبي جديد ليخلف هنري الذي توفي سنة ١٢١٦ م ، وهو بطرس من كورتيناي زوج يولاندة شقيقة هنري . وكان بطرس قد توج على يد البابا في مدينة روما ثم بدأ رحلته نحو القسطنطينية . نصب تيودور انجيلوس كمينا للامبراطور الجديد وقبض عليه في الممرات الجليلة لألبانيا وألقى به في السجن حيث مات . ولذا فقد اضطلعت يولاندة بالوصاية على الحكم في القسطنطينية حتى ماتت سنة ١٢١٩ م ، فآل التاج إلى ابنها الضعيف روبرت . انتهز تيودور انجيلوس الفرصة وهاجم مملكة سالونكا وبعد حصار مرير دخلها ظافراً ، في سنة ١٢٢٤ م . وهكذا قضى آل انجيلوس على المملكة الصليبية القوية التي كان بونيفاس دي مونت فرات قد أقامها في مقدونيا وتساليا . وعلا نجم تيودور انجيلوس الذي امتد نفوذه على الأراضي الممتدة بين البحر الأدرياتي وبحر ايجة . وكان هذا النصر كفيلا بأن يجعله يتلقب باللقب الامبراطوري أوتوقراطوراً للبيزنطيين . وقد تم حفل تتويجه امبراطوراً في بلدة أوخريدا على يد رئيس الأساقفة ديمتريوس كوماتيانوس . وبهذا يكون تيودور انجيلوس قد ألقى بالقفاز في وجه تيودور لاسكارس امبراطور نيقيا .

ودار الصراع على تربة بيزنطة بين أربع قوى هي : اللاتين ، وخان البلغار ، وحكومة ابيروس ، وحكومة نيقيا ، كلٌ يسعى للاستحواذ بالامبراطورية البيزنطية .

وقد قدر لحكومة نيقيا دون سواها أن تحصل على هذا الهدف الأكبر . ولقد قرب المسافة على حكومة نيقيا ذاك التدهور الذي أصاب أحوال اللاتين في القسطنطينية ، وتلك الأخطاء التي تردى فيها حكام ابيروس ثم أخيرا تلكم

الرعونة التي اتسمت بها سياسات خان البلغار .

في سنة ١٢٢٢ م خلع تيودور لاسكارس تاج الامبراطورية في نيقيا على زوج ابنته يوحنا الثالث ڤاتاتزيس (١٢٢٢ – ١٢٥٤ م) . وڤاتاتزيس هو أهم أباطرة نيقيا ، وقد سار على سياسة لاسكارس فجعل من دولته قوة مهيبة الجانب في الشرق والغرب . والواقع أن أشقاء تيودور لاسكارس قد غضبوا لأنهم حرموا من التاج الذي أنعم به تيودور على زوج ابنته . وتآمر آل لاسكارس مع الصليبيين ضد ڤاتاتزيس ، ولكن هذا الأخير نجح في إلحاق الهزيمة بخصومه جميعاً في واقعة پويمانينون (Poimanenon) ، واضطر الصليبيون إلى توقيع اتفاقية مع ڤاتاتزيس سنة ١٢٢٥ م ، تخلوا بمقتضاها عن كل الأراضي التي كانت لهم في آسيا الصغرى ؛ فيما عدا الشريط الساحلي المقابل للقسطنطينية والمناطق المحيطة بنيقوميديا . وفي نفس الوقت نجح الأسطول الذي كان لاسكارس قد بناه منذ زمن . في احتلال جزائر لسبوس وخيوس وساموس وإكاريا . واضطرت جزيرة رودس أيضا إلى الاعتراف بنفوذ حكومة نيقيا عليها . بعد هذا الانتصار راح ڤاتاتزيس يتحرش بخصمه البيزنطي العتيد تيودور انجيلوس صاحب ابيروس ، فاستغل دعوة وجهها إليه أهالي أدرنة وزحف على أراضي خصمه ، ولكن تيودور انجيلوس هجم على جيش نيقيا من المؤخرة وأجبره على التقهقر . وقد عزز هذا الصمود أمام جيش نيقيا القوي من همة وطموح تيودور انجيلوس ، فقرر الزحف نحو القسطنطينية لتحريرها من أيدي الصليبيين . ولكنه في هذا المسعى اصطدم بخان البلغار يوحنا الثاني آسن (١٢١٨ – ١٢٤١ م) ؛ الذي كان يخطط هو أيضا للفوز بتاج بيزنطة ليزين به رأس « عاهل البلغار والروم » . وقد ساعدت الأحداث على تأصيل هذا الحلم في خيال الخان : ففي سنة ١٢٢٨ م توفي روبرت كورتيناي وانتقل تاج القسطنطينية إلى شقيقه القاصر بلدوين الثاني . وهنا فكر المسئولون من الصليبيين في القسطنطينية في أن يضعوا بلدوين الثاني القاصر تحت وصاية الخان البلغاري لحماية أنفسهم ومصالحهم من مخططات ابيروس ونيقيا .

وتعزيزاً لهذه السياسة طرح مشروع زواج بلدوين الثاني من هيلين ابنة الخان البلغاري . غير أن هذه الخطة أثارت غضب تيودور انجيلوس صاحب ابيروس ، فبادر بإعلان الحرب على الخان البلغاري . وقد كان هذا التهور من جانب صاحب ابيروس سبباً في ضياع مملكته ، فقد ألحق به الخان هزيمة ساحقة عند كلوكوتنتزا (Klokotniza) في ربيع سنة ١٢٣٠ م . ووقع تيودور انجيلوس أسيراً في يد الخان ، الذي أمر بسمل عينيه . وإن كان قد أفرج عنه بعد قليل بعد أن افتتن بجمال ابنة أسيره فأطلق سراحه مقابل زواجه من هذه الإبنة . وانهارت كل الجهود التي كان صاحب ابيروس قد جاهد في سبيل تحقيقها . ولم يتمكن خليفة تيودور انجيلوس ، وهو مانويل شقيقه ، من التطلع بعد هذا إلى القسطنطينية ، لأن الخان البلغاري استولى على أملاك ابيروس في سالونكا وتراقيا ومقدونيا وألبانيا . كذلك عمل الخان على تقويض نفوذ آل انجيلوس في بلاد الصرب ، فخلع الأمير رادزلاف . زوج ابنة لتيودور انجيلوس ، عن العرش وعين مكانه أخا للأمير المخلوع هو ڤلادزلامث ثم زوجه من إحدى بناته .

على أن أهم ما يجب ملاحظته هنا أن هذا الصراع المرير بين الخان البلغاري واللاتين وحكومة ابيروس لم يخدم طرفاً بقدر ما خدم امبراطور نيقيا ، الذي كان يتابع الأحداث من بعيد وفي حذر بالغ . وكانت الأمور تسير بطريقة تخدم مصالحه : فلقد خلصه الخان — دون قصد منه — من خصمه العنيد تيودور انجيلوس في البلقان . ثم ما لبث الصليبيون أن انقلبوا على حليفهم الخان ونبذوا مشروع وصايته على امبراطورهم بلدوين الثاني ، بعد أن وقع اختيارهم على حنادى برين ملك بيت المقدس العجوز ليجلس على عرش القسطنطينية وليفيد بخبرته الطويلة في المشرق في الصراع الدائر بينهم وبين البيزنطيين وأيضا في الصراع المرتقب ضد حليف الأمس وعدو اليوم يوحنا الثاني آسن خان البلغار الأكبر . وهنا التفت الخان إلى ڤاتاتزيس صاحب نيقيا ووقع معه معاهدة وحلفا في بلدة جاليبولي سنة ١٢٣٥ م ضد الصليبيين . وتم زفاف

هيلين ابنة الخان . التي كان قد اتفق سابقا على زواجها من بلدوين الثاني الصليبي ، من تيودور الثاني ابن ڤاتاتزيس . وقامت حملة مشتركة من البلغار وبيزنطيي نيقيا لمحاصرة القسطنطينية براً وبحراً في سنة ١٢٣٦ م . وبينما شدد الحلفاء حصارهم على القسطنطينية أخذ الخلاف يدب بين صاحب نيقيا والخان . وتفسير ذلك أن الخان قد أدرك أن سقوط القسطنطينية لن يعود بالنفع إلا على سيد نيقيا وحده . وغدر الخان بصاحبه فعقد حلفاً مع الصليبيين المحاصرين وأعلن الحرب على حليفه ڤاتاتزيس ثم حرض قبائل الكومان والصليبيين على مهاجمة مدينة تزورولوم (Tzurulum) في تراقيا ، التي كانت تخضع لامبراطور نيقيا .

غير أن الأقدار لقنت الخان المتقلب العواطف درسا مريراً : فلقد تفشى الوباء في شعبه في مدينة ترونوڤو (Tronovo) ، وكانت زوجه أولى الضحايا ، ثم لحقها ابنها ، وهلك بين من هلك أيضا بطريرك البلغار . ونظر الخان إلى هذه الكوارث التي تلاحقت تباعاً على أنها قصاص السماء ضد الغدر . ولذا فإنه رفع الحصار عن مدينة تزورولوم وعقد صلحاً جديداً مع ڤاتاتزيس سنة ١٢٣٧ م . وبعدها بقليل توفى الخان منكسراً مهموماً ، ثم ابتلى البلغار بأذى أشد وأنكى عندما جرفهم غزو تتار القرن الذهبي فتحطمت دولتهم تماماً . والآن بقي على المسرح بطل واحد هو ڤاتاتزيس امبراطور نيقيا .

في سنة ١٢٤٢ م قاد ڤاتاتزيس حملة ضد خصومه البيزنطيين في سالونكا ، حيث كان تيودور انجيليوس قد خرج من سجن البلغار وراح يمارس الحكم ، وهو ضرير ، بمعونة ابن له يدعى يوحنا . ولما أن شدد ڤاتاتزيس من هجومه على خصمه بادر تيودور انجيلوس إلى طلب الصلح ووافق على شروط ڤاتاتزيس بأن أسلمه العلامات والنياشين الامبراطورية وأقسم له أنه لن ينافسه في السعي نحو عرش القسطنطينية ، وبأنه سوف يظل تابعا مخلصاً لسيد نيقيا . وأسرع ڤاتاتزيس عائداً إلى آسيا الصغرى عندما أتته الأخبار عن زحف المغول على أراضي اسيا الصغرى .

في الأربعينات من القرن الثالث عشر زحف المغول أو التتار [٣] من قلب آسيا قبالة الغرب. ويعرف المغول في المصادر البيزنطية باسم «التهار» أو «الأتار». تحرك المغول في خطين مختلفين: الأول شمالي نحو شرقي أوربا، والثاني جنوبي قبالة الشرق الأوسط. اكتسح الفرع الأول روسيا وسقطت كييف تحت أقدامهم سنة ١٢٤٠ م. ثم عبروا جبال الكربات ووصلوا إلى بوهيميا فصدوا واضطروا إلى التقهقر إلى استبس الروسيا. وفي نفس الوقت وصل الفرع الجنوبي إلى الشرق الأوسط فاستولوا على أرمينيا كلها بما فيها أرض الروم (Erzerum) ثم غزوا آسيا الصغرى ومزقوا قوة الأتراك السلاجقة في قونية وامبراطورية طرابيزوند البيزنطية. واضطر سلطان قونية وصاحب طرابيزوند إلى دفع الجزية للمغول والاعتراف بالتبعية للخان الاكبر للمغول. وقد نجت حكومة نيقيا من هول المغول بسبب تغير طارىء في التحركات فحسروا تقدمهم قبالة الغرب. على أن أهم ما يعنينا هنا ما ردده مؤرخ لاتيني معاصر هو متى من بارس (Matthew of Paris) من أقاويل سرت في الأوساط اللاتينية: فهو يقول إنه في سنة ١٢٤٨ م وصل سفيران مغوليان إلى البلاط البابوي في روما وقابلا البابا انوسنت الرابع، الذي كان وكرادلته يتوقون إلى تنصير المغول على المذهب الروماني. ويروى هذا المصدر أن الرسالة الأولى الموجهة من الخان المغولي إلى البابا تحوي فيما تحتويه عرضا بأن يشن المغول حربا ضد الامبراطور البيزنطي يوحنا ڤاتاتزيس (باتاكيوم) صاحب نيقيا «ذلك اليوناني، صهر فردريك الثاني، الانفصالي المتمرد ضد الكيوريا البابوية» [٤]. وفي رواية أخرى لنفس الكاتب في مؤلفه بعنوان «Historia Anglorum» نطالع أن البابا قد طلب من السفراء المغول أن يبلغوا سيدهم الخان الأكبر بأنه إن كان حقا قد اعتنق النصرانية فإنه

---

(٣) أنظر ما بعده، الفصل الخاص بتحركات المغول في عصر باليولوغوس.

(4) Matthew of Paris, Chronica Majora, (ed. H.R. Luard), V. 37-38; K. Pertz, Monumenta Germaniae Historica Scriptores, XVIII, 301-302.

يحسن به أن يزحف بجيوشه ليسحق يوحنا ڤاتاتزيس « ذلك اليوناني ، صهر فردريك ، الانفصالي ، المتمرد ضد البابا وضد بلدوين (امبراطور بيزنطة اللاتيني) ، وبعدها فليزحف ضد فردريك نفسه الذي شق عصا الطاعة ضد البابوية»(٥) . ويستطرد نفس المصدر راوياً بأن السفراء المغول الذين لم يرغبوا في تشجيع عوامل الكراهية بين مسيحيي الغرب والشرق قد أفادوا البابا -- عن طريق المترجمين -- بأنهم لن يستطيعوا طرح هذا الأمر على سيدهم ؛ لأنه سوف يغضب إن هو علم بتلك النوايا (٦) .

ولا يجوز لنا أن نصدق أيا من هاتين الروايتين ، فما ورد فيهما إنما يعكس أقاويل الصالونات في الغرب اللاتيني في ذلك الوقت من القرن الثالث عشر ، فهي أبعد ما تكون عن الصدق التاريخي (٧) .

انتهز ڤاتاتزيس فرصة الانهيار الذي حل بالبلغار على يد التتار ، وقرر أن يحسم الموقف في البلقان . وسار على رأس حملة سنة ١٢٤٦ م ليحقق أغراضه واستولى بالفعل على تراقيا ومقدونيا ، ولم يقدر الملكان البلغاريان كولومان (١٢٤١ -- ١٢٤٦ م) وميخائيل (١٢٤٦ -- ١٢٥٦ م) على التصدي لقوة سيد نيقيا . وبعد هذه الانتصارات زحف ڤاتاتزيس على سالونكا واستولى عليها ، بل إنه قد لقي ترحيبا حاراً من الأهلين . واختفت بذلك امبراطورية ابيروس من الوجود . وقد عوض الامبراطور خصمه تيودور انجيلوس بإمارة في أراضي ڤودينا ، ثم ساق ابنه ديمتريوس سجينا إلى آسيا الصغرى ، وعين حاكما من قبله على سالونكا هو اندرونيكوس باليولوغوس .

---

(5) Matthew of Paris, Historia Anglorum, (ed. F. Madden), III, 38-39.

(6) Ibid.

(7) See P. Pelliot, « Les Mongols et la Papauté, » Revue de l'Orient Chrétien, XXIV (1924), 330-31; XXVII (1931-32), 3-84; Cambridge Medieval History, Vol. IV, 493; A.A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol II, p. 532.

كان ڤاتاتزيس على صلات طيبة مع سيد عصره فردريك الثـاني هوهنشتاوفن امبراطور الدولة الرومانية المقدسة في الغرب . وفردريك هذا هو ألمع الملوك الألمان جميعا على مدار العصور الوسطى ، وكان يحكم كلاً من ألمانيا ومملكة صقلية . وقد أمضى فردريك طفولته الباكرة في پالرمو حيث عايش اليونان والعرب والنورمان ، وكان يجيد الايطالية واليونانية والعربية . ولكنه — وهو ملك الألمان — لم يكن يحسن اللسان الألماني حتى في عنفوان شبابه . وفردريك عقل سابق لعصره ، فلم يكن ينظر للمسائل الدينية بعين رجال العصور الوسطى ولا بعقلهم . وكان بلاطه ذاخراً بالعلماء العرب الذين علموه الفلسفة والعلوم البحتة ، وهو الذي أسس جامعة ناپلي الشهيرة وكذا مدرسة الطب المرموقة في سالرنو . ولم يكن في أوربا قاطبةً من يفهم فردريك الثاني ، الذي كان أشبه ما يكون بأمراء عصر النهضة وليس على شاكلة فرسان العصر الوسيط الأجلاف ، ولذا يلقبه المؤرخون بلقب « معجزة الدنيا » (Stupor mundi) ؛ لأنه كان ، وبحق ، سابقاً لعصره وزمانه في كل أفكاره وفي نظرته للحياة . وقد رأى فيه المعجبون بشخصه محرك النهضة في أوربا ، والممهد الأول لسقوط العصر الوسيط وبزوغ فجر العصور الحديثة (٨) .

كان فردريك — كأسلافه من الهوهنشتاوفن — يمثل تجسيداً لمفهوم الامبراطورية العالمية ، وهذا يخول له صلاحيات لا حدود لها ، فهو مفوض من قبل الله على الأرض . ومن هذا المنطلق فإن خليفة شرلمان كان يرى في البابا تابعاً له ، ولذا فإنه يعيب على البابوية طموحها الزائد وحشر أنفها في الأمور الدنيوية ؛ مغفلةً في صراعها لتحصيل هذا الهدف أمور الدين ورعاية الروح . ولذا فإن صراعاً مريراً وقع بين فردريك الثاني وبين البابوات ، الذين

---

(8) See J. Huillard-Bréholles, Introduction à l'histoire diplomatique de l'empereur Frédéric II, DLVII; M. Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, III (2), 616 (2nd ed. 1937), 628; E. Kantarowicz, Kaiser Friedrich der Zweite, 613.

أنزلوا عليه لعنة الحرمان مرات ثلاث ، وجعلوا هدفهم الأكبر « استئصال شأفة ذلك التنين الألماني » . ولما كانت البابوية – وهي التي خططت لسقوط بيزنطة في أيدي اللاتين سنة ١٢٠٤ م – تجد تأييداً كبيراً لمزاعمها من جانب الامبراطورية الصليبية التي أقامها الفرنجة في القسطنطينية ، فقد كان طبيعياً أن يناصب فردريك الثاني العداء للامبراطورية اللاتينية في بيزنطة . وهنا التقت مصالح فردريك مع مصالح يوحنا ڤاتاتزيس امبراطور نيقيا ، الذي كان يعمل جاهداً لاسترداد بيزنطة من أيدي غزاتها اللاتين . يضاف إلى هذا أن البابوية لم تعترف بالبطريركية الأرثوذكسية التي استحدثها ڤاتاتزيس في نيقيا ، وهي بطريركية المنفى بضرورة الحال . والواقع أن فردريك الثاني لم يكن ليشغل باله بالمسائل الدينية ، فهو لا يفرق كثيراً بين الأرثوذكس والكاثوليك . وعد فردريك بأن يساعد ڤاتاتزيس في تحرير القسطنطينية من أيدي الصليبيين وأن يعيدها لأصحابها الشرعيين ، على أن يصبح ڤاتاتزيس فصلاً للعاهل الألماني ، وأن يعمل البيزنطيون على إعادة الوحدة بين كنيستهم وكنيسة روما . ولقد ازدادت العلاقات بين الامبراطورين تماسكاً ، حتى إننا نرى كتائب بيزنطية تحارب في صفوف جند فردريك في ايطاليا ضد أعداءه في العقد الرابع من القرن الثالث عشر . ثم توطدت العلاقات بين الطرفين بشكل أوضح بعد وفاة زوج ڤاتاتزيس الأولى – وهي ايريني ابنة تيودور لاسكارس – فلما أن كان الامبراطور الأرمل « لم يعد يطيق العزلة » فقد تزوج من كونستانس ابنة فردريك الثاني التي كانت تبلغ من العمر احدى عشر ربيعا فحسب . وقد وضحت سعة أفق والدها بأن سمح لها أن تدخل بهذا الزواج في عضوية الكنيسة الأرثوذكسية ، وتسمت اسما إغريقيا فعرفت باسم أنّا (Anna) [٩] . ولدينا قصيدة طويلة قرضها الشاعر نيقولا ارنيكوس بمناسبة هذا الزفاف الميمون الذي تم في نيقيا ، ويشبه شاعرنا العروس باللبلابة

---

(9) Nicephorus Gregoras, Historia Byzantina, II, 7, 3; (Bonn ed) 1, 4 s.

ويحفها العريس بنفح الورود [١٠] . وقد قدر للامبراطورة أنّا أن تعيش سنيناً طوالاً بعد رحيل زوجها الامبراطور ، وشهدت خلال تلك السنين أحداثا خطيرة للغاية ، وانتهت أيامها وهي تقيم في ڤالنسيا الاسبانية ، ودفن جثمانها في كنيسة صغيرة هنالك تعرف باسم كنيسة القديس يوحنا الاسبتالي St. John-of-the-Hospital ، وكتب على ضريحها « هنا ترقد السيدة كونستانس الامبراطورة المهيبة لليونان [١١] » .

كان فردريك الثاني صاحب فلسفة خاصة تجاه المسائل الدينية ، ولعله في هذا يطل كرائد من رواد حركة الاصلاح الكنسي قبل أوانها ؛ الأمر الذي دعى بعض المفكرين إلى مقارنته بهنري الثامن ملك انجلترا الذي ابتدأ حركة الإصلاح الديني في بلاده . وتطالعنا رسائل فردريك الثاني إلى ڤاتاتزيس ببعض من الآراء التي كان العاهل الألماني يؤمن بها : ففي إحدى هذه الرسائل يقول الامبراطور فردريك بأنه قد دفع إلى الكتابة إليه لا لحبه له فحسب ، وإنما أيضا لأنه يود أن يؤكد له تأييده الكامل ومساندته للمبادىء التي تقوم عليها نظم الحكم الملكي : « نحن جميعا ، معشر الملوك والأمراء على الأرض ، خاصة هؤلاء منا الذين يناصرون المبادىء الأرثوذكسية وأيمانانها ، نضمر عداوة شديدة للمطارنة ومعارضة وجدانية لأساقفة الكنيسة وأحبارها » . ثم يعدد فردريك الرذائل التي تردى فيها رجال الاكليروس في غرب أوربا اللاتيني بسبب اساءة استخدام الحرية التي أعطيت لهم . وينهي فردريك رسالته هذه بالصيحة الآتية : « يا لسعد آسيا ! يا لحسن حظ حكام الشرق ! إنهم لا يخشون سلاح رعيتهم ، ولا يجرؤ مطارنتهم على حشر أنوفهم فيما

---

(10) G. Schlumberger. « Le Tombeau d'une impératrice byzantine à Valence », Revue des Deux Mondes, XVII (1902); Gardner, Lascarids of Nicaea, 308.

(11) Schlumberger, op. cit., loc. cit.; C. Diehl, « Constance de Hohenstaufen, impératrice de Nicée », in Figures byzantines, II, 207-25.

لا يعنيهم »[١٢] . وفي رسالة أخرى إلى ڤاتاتزيس يبدي فردريك حنوا نحو المبادىء الارثوذكسية الشرقية ، وهذا واضح من الجزء التالي من الرسالة : « عجبا لهذا الكاهن الأكبر (البابا) الذي ينزل على جلالتكم كل يوم لعنة الحرمان ؛ على مرأى ومسمع من عامة الناس ومن رعايا فخامتكم . بل إنه (البابا) يدمغ كنيستكم الأرثوذكسية بالهرطقة . تلك الكنيسة التي هي المنبع الذي استقى منه الكون كله مبادىء العقيدة المسيحية »[١٣] . وفي مناسبة أخرى كتب فردريك الثاني إلى ڤاتاتزيس يحذره من البابوية وكرادلة الغرب على أنهم « ليسوا قسيسين باسم المسيح وإنما هم ذئاب خاطفة ووحوش ضارية كل همهم امتصاص دماء الشعوب المسيحية »[١٤] .

في أثناء ذلك كانت أحوال الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية قد ساءت إلى حد أن الامبراطور بلدوين الثاني قد أودع وحيده ووريثه فيليب رهينة إلى التجار البنادقة مقابل قرض مالي ليواجه به أعباء الدولة . والحق أن جهود ڤاتاتزيس هي التي أنهكت موارد اللاتين في القسطنطينية ؛ الأمر الذي شدد من أمل البيزنطيين في استرداد عاصمتهم الغالية . ولكن القدر لم يمهل ڤاتاتزيس ليشهد ذلك اليوم ، فقد توفي سنة ١٢٥٤ م بعد تلك الإنجازات الرائعة في سبيل الهدف الأسمى . توفي يوحنا ڤاتاتزيس وهو في الثانية والستين من العمر ، بعد حكم دام تسعا وثلاثين عاماً . وهناك إجماع عجيب في المصادر البيزنطية في مديح هذا الرجل . كتب تيودور الثاني لاسكارس ، وهو ابن ڤاتاتزيس ووريثه ، في تأبين والده يقول : « لقد وجد الأرض التي مزقها الأغراب الألداء من لاتين وفرس وبلغار وسكيذيين ، ولقد طهر البلاد من اللصوص ،

---

(12) Huillard-Bréholles, L'Histoire diplomatique de Fréderic II, dxvii - dxviii.

(13) N. Festa, « Le lettre greche di Federigo II, » Archivio Storico italiano, XIII (1894), 22; the Latin text in Huillard-Bréhelles, L'Histoire diplomatique de Fréderic II, VI, 772.

(14) Festa, ibid., 15-16.

وأمنها من الخوف وجعل من وطننا قلعة منيعة ضد الطامعين » [١٥] . لقد صادف اسم يوحنا ڤاتاتزيس حباً شديداً في أفئدة الشعب البيزنطي ، حتى إنه بعد وفاته ببعض الوقت أصبح في عداد القديسين ، ودارت حوله الأساطير الكثيرة ، كذلك يلاحظ أن التقويم الأرثوذكسي يضع اسم ڤاتاتزيس في أعياد الرابع من نوفمبر من كل عام [١٦] .

(15) Unspensky, « Mannscripts of the History of Nicetas Acominatus », Journal of the Ministry of Public Instruction, CXCIV (1877), 76; J.B. Pappadopoulos, Theodore II Lascaris empereur de Nicée, 43.

(16) Arch. Sergius, The Complete Liturgical Calender (Monologion) of the Orient (2nd ed., 1901), II, 344.

الفصل الثاني

باليولوغوس يسترد القسطنطينية

« القسطنطينية أكروپول العالم ، العاصمة الامبراطورية للرومان (البيزنطيين) التي قدرت لها السماء أن تكتوى بنار اللاتين ، قد عادت مرة أخرى إلى أهلها البيزنطيين . ولقد منّ الله على الشعب بهذا الفضل من خلال جهودنا » .

(ميخائيل باليولوغوس)

* * *

بعد وفاة ڤاتاتزيس خلفه على عرش نيقيا ابنه تيودور الثاني لاسكارس (١٢٥٤ – ١٢٥٨) . وكان تيودور هذا ذا طبع متقلب وميالاً إلى القسوة والعنف . ويروى عنه أن أحد وزراءه المدعو جورج اكروبوليتا كان قد نصح له برأي أثناء إحدى الحملات على بلغاريا ، ولكن الرأي لم يصادف قبول الامبراطور ، فأمر بطرح الوزير على الأرض وبضربه بالهروات حتى كاد الرجل أن يموت . ولعل تلك القسوة ترجع إلى طبيعة المرض الذي كان قد ورثه عن أبيه وهو داء الصرع ، الأمر الذي ابتلاه باستحواذ الخوف من دنو

الموت قبل الأوان . كما وأنه كان يرتاب فيمن حوله ، ظاناً أن أعداءه في البلاط قد دسوا له السم أو سلطوا عليه سلاطين السحر الأسود . ولقد أدت تلك الحالة النفسية السيئة التي أزم تيودور بها نفسه ومن حوله إلى ازدياد بطشه ، فكانت كل نوبة مرضية نذيرا بحركة إعدام لبعض النبلاء وسمل عيون البعض الآخر . ولقد رأى المعاصرون في شخص تيودور طاغية متهوساً ، لا يملك واحدة من الصفات الطيبة التي كان يتمتع بها والده . ويروي الكتاب عنه أن واحدة من نبيلات بيت پاليولوغوس قد رفضت أن تزوج ابنة لها من واحد تقدم لها من رجال تيودور ، فاستشاط غضباً وأمر بالقبض عليها ، وكلف من أدخلها في كيس مع عدد كبير من القطط ، وأخذوا في وخز تلك القطط بالإبر لكي تفرغ جنونها في جسد تلك السيدة الحبيسة . غير أنه في الساعات الأخيرة من حياته ، طلب تيودور الصفح من رعاياه ، مبدياً الندم على ما فعلته يداه . ويبدو أن هذا الندم كان تعبيراً عن قلقه على مصير ولده ووريثه يوحنا الذي كان طفلا في الثامنة من العمر . ولقد اختار تيودور لوريثه وصياً هو جورج موزالون ، كبير خدم القصر الذي كان من أفراد الشعب . والمعروف أن تيودور كان يمقت طبقة النبلاء ، ولذا فإنه قد أبعدهم عن شئون الوصاية على العرش .

وبعد وفاة تيودور عقد موزالون مجلسا واعتلى عرشا عاليا وخاطب أعضاء المجلس معتذراً عن سوءات الماضي ، مبشراً بآمال الغد . وقد قابل النبلاء هذا الحديث بتصفيق حاد وراحوا يتملقون موزالون فخلعوا عليه لقب « مخلص الرومان » (البيزنطيين) . ولكن هذه الهتافات كانت تغطية مسرحية لمؤامرة تحاك خيوطها في الخفاء ضد موزالون : ففي اليوم التاسع بعد وفاة الامبراطور تيودور ، وفي أثناء صلاة جنائزية في كاتدرائية ماغنيزيا على روح الامبراطور الراحل ، قوطعت القداسات على جلجلة السيوف والخناجر ، وقام الحرس باغتيال موزالون وإخوته وأتباعه في مذبحة رهيبة على أعتاب مذبح الكاتدرائية . وكان رأس الانقلاب نبيل بيزنطي هو ميخائيل پاليولوغوس :

وهو ابن لاسرة عريقة لمع اسمها في حوليات بيزنطة منذ منتصف القرن الحادي عشر ، فالمعروف أن جورج پاليولوغوس ، الجد الاكبر للاسرة ، هو الذي ساعد آل كومنين في الحصول على العرش البيزنطي في أواخر القرن الحادي عشر . ويطالعنا ميخائيل الثامن پاليولوغوس نفسه بأصل نسبه بقوله انه ينتسب إلى بيت دوكاس وبيت كومنين وبيت انجيلوس ، وهي بيوت امبراطورية كلها . ونستدل على ذلك النسب من توقيع ميخائيل ياليولوغوس نفسه * . والواقع أن أبناء بيت پاليولوغوس قد شغلوا منذ وقت بعيد أرفع المناصب في قيادات الجيش وفي مجال الحكومة . كما أن أسرة ياليولوغوس كانت على صلة مصاهرة بأسرة تيودور لاسكارس الأول بطل حكومة المنفى في نيقيا .

كان ميخائيل يجمع في شخصه بين نبالة الأصل وشجاعة الجندي وفطنة رجل الدولة ، وقد رقي في صدر شبابه فكان قائداً لفرقة الفرنجة المرتزقة ، الذين كانوا في خدمة الدولة البيزنطية . وقد أحبه جنده حباً خالصاً ، وأخذ نجمه في العلو شيئا فشيئا حتى دار اسمه على كل لسان في البلاط ** . وبدأت ألسنة الحاقدين تحذر من هذا الشاب الطموح ، وأخذ الامبراطور يحقد عليه ويدبر لهلاكه . وقد تعرض پاليولوغوس للخطر مرات ثلاث : أولاها في عهد الامبراطور ڤاتاتزيس ، فقد دخل ميخائيل پاليولوغوس في مناقشة حادة مع واحد من ضباط الحرس الامبراطوري ، وراح هذا الضابط يشكو

---

* « Μιχαὴλ ἐν Χριστῷ Θεῷ πιστὸς
βασιλεὺς καὶ αὐτοκράτωρ
Ῥωμαίων Δούκας Ἄγγελος
Κομνηνὸς ὁ Παλαιολόγος . »

See Laurent, V. « La genealogie de premiers Palaeologues. » **Byzantion VIII** (1933), fasc. II, pp. 123-149.

** See Palaeologus, Michael, De Vita sua opusculum, French translation in Chapman, C., Michel Paléologue, restaurateur de l'Empire Byzantin.

للامبراطور بأن ميخائيل قد صرح بأن لأسرته الحق في التاج البيزنطي . وأمر الامبراطور الخصمين بالاحتكام إلى السيف لإظهار حقيقة ما وقع على ضوء نتيجة المبارزة ، وذلك وفقا للتقاليد اللاتينية التي كان الصليبيون قد أتوا بها إلى العالم البيزنطي منذ غزوهم للقسطنطينية سنة ١٢٠٤ . ومع أن پاليولوغوس قد هزم خصمه في المبارزة ، إلا أن الشكوك ظلت تحوم حوله في كل جنبات القصر . ولذا فإن صديقا لپاليولوغوس هو كبير أساقفة فيلادلفيا نصح له بأن يقبل الاحتكام إلى النار لإثبات براءته . وعليه فقد غلفت ذراع پاليولوغوس في حقيبة وأحكم اغلاقها على الذراع بأن وقع الامبراطور عليها بنفسه .

وفي يوم التحكيم كان على باليولوغوس أن يحمل بيده ، بعد إخراجها من حقيبتها ، كرة من الحديد المتقد من مدخل الكنيسة حتى مذبحها مرات ثلاث . وإن لم تصب اليد بأذى أو حروق يكون باليولوغوس بريئاً أمام الامبراطور . وكان باليولوغوس يومها محاطاً برجال القصر والمحكمين وعلى رأسهم الامبراطور وكبير الاساقفة ، وقد كان الخطر الذي ينتظره قاتلاً ، فأسعفته بديهته فراح يخاطب كبير الاساقفة في حضرة الامبراطور قائلاً : « أيها الأب المبارك ، إن أنا إلا رجل علماني مليء بخطايا وأدران هذا العالم ، ولكنك أنت أيها المقدس بنعمة الله نقي وطاهر ، ولذا فإنني أتوسل إليك أن تسلمني أنت بيديك الطاهرتين الكرة الحديدية المتقدة لكي أبرهن لصاحب الجلالة على براءتي » . وكان انزعاج كبير الاساقفة عظيماً ، ولاحظ الامبراطور ذلك تماماً ، وابتسم راضياً ومقدراً لباليولوغوس سرعة بديهته ومكره البارع ، فقرر تبرأته ، بل إنه أنعم عليه بمنصب عسكري رفيع . [١٦] .

وفي عهد ثيودور الثاني كان ميخائيل حاكماً على مدينة نيقيا ، ثم أبلغه

---

(17) Pachymeris, George, De Michaele Palaeologo, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, 1, 1, C. 12.

بعض اصدقائه بأن الامبراطور يدبر خطة للقبض عليه وسمل عينيه . وكانت لدى ميخائيل المبررات الكافية التي جعلته يصدق القول ، فانتهز فرصة غياب الامبراطور عن العاصمة نيقيا وهرب مع نفر من أتباعه المقربين إلى بلاط السلطان السلجوقي . وقد أثبت ميخائيل كفاءة نادرة في خدمة السلطان وقت الغزو المغولي للأراضي السلجوقية ، فقربه السلطان إليه . وبعد أن وثق صلاته بالبلاط السلجوقي عمل على توثيق العلاقة الودية بين السلطان وبين بيزنطة فسعى إلى فتح صفحة سلام بين الجارين اللدودين . وبهذه الصفقة الرابحة ضرب عصفورين بحجر واحد ، وأرسل إليه الامبراطور ثيودور بالعفو ورحب به عائداً ثم أنعم عليه بامتيازات جديدة .

وجاءت ثالثة المخاطر بينما كان ميخائيل يشرف على حراسة أملاك نيقيا في البلقان ضد تحرشات حاكم ابيروس الانفصالي ، فلقد أشارت إليه بعض الأصابع في القصر بالاتهام من جديد . ولذا فقد أرسل الامبراطور من قبض عليه وكبله بالأغلال وساقه هكذا مغلولاً مسافة تربو على ستمائة ميلاً من دورازو إلى نيقيا . وما أن وصل هذا الموكب المهين إلى القصر حتى كان الامبراطور ثيودور الثاني يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فأصدر عفوه عن باليولوغوس بعد أن أقسم يمين الولاء والطاعة لولي العهد يوحنا .

كان باليولوغوس أول من بادر بإعلان الولاء لشخص موزالون وللامبراطور الطفل ، ولكنه كان أيضاً أول من بادر بالعصف بهذا الولاء . وبعد المذبحة التي تمت في الكاتدرائية والتي اغتيل فيها موزالون وأفراد اسرته ، راح باليولوغوس يمهد الطريق لنفسه ، فأوعز لكل واحد من أقرانه على حدة بأنه الأفضل للاضطلاع بالوصاية على العرش ، ولكنه طلب من كل منهم أن يزكي باليولوغوس نفسه في حالة عدم فوزه بالمنصب المرموق . وانتهى الأمر باختيار باليولوغوس بطبيعة الحال للوصاية على الامبراطور الطفل يوحنا . وتلقب باليولوغوس بلقب « الدوق الأكبر » ، وخضع النبلاء جميعاً لأمر باليولوغوس.

وكان الامبراطور الراحل ڤاتاتزيس قد احتفظ بكنوز الدولة في حصن منيع على ضفاف نهر هرموس تحت حراسة مشددة من فرقة الفرنجة المرتزقة . وكان باليولوغوس قد عمل زمناً قائداً لهذه الفرقة ، ولذا فإنه لم يكن من العسير عليه أن يستولي على تلك الكنوز ، ثم قام بتوزيع هبات منها على أفراد المرتزقة ، ضماناً لولائهم . ثم عمل باليولوغوس على اكتساب محبة الرعية فخفف عنهم عبء الضرائب كما أنه أصدر قراراً بتحريم المحاكمات التحكيمية بالنـــار وبالمبارزة . كذلك وثق باليولوغوس علاقاته برجال الدين عموماً وبالبطريرك البيزنطي على وجه الخصوص ، وتودد إلى رجال الدين بزياراته المتكررة لبيوت العبادة وباظهار سخاء زائد نحو مصالحهم . وعلى هذا فإنه عندما ألح نفر من أتباع باليولوغوس بأن أعباء الحكم في نيقيا تتطلب رجلاً صلباً ليشارك الامبراطور الطفل في تسيير دفة الأمور ، لم يجد باليولوغوس حرجاً في أن يخلع على نفسه أرفع الألقاب البيزنطية وهو لقب « أمير » (Despot) ، الذي خول له الحق في ارتداء العباءة الأرجوانية ولكأنه واحد من أفراد البيت الامبراطوري . وبعد قليل طالب أنصار باليولوغوس بأن يتوج سيدهم شريكاً في التاج مع الطفل يوحنا ، واستجاب الرأي العام لهذا المطلب . وفي يوم الحفل جاهر الأنصار بأن السن والعقل هما الأرجح على حق الوراثة لحكومة في المنفى تسعى وراء هدف نبيل هو استرداد الأرض المغتصبة من الصليبيين . وقد تم لهم ما أرادوا ، ففي لحظات أعلن تأجيل تتويج الطفل يوحنا واكتفى بمنحه إكليلاً حمله وسار به في الصفوف ليزف ميخائيل باليولوغوس إلى العرش ، وتلقى باليولوغوس التاج من أيدي البطريرك ارسنيوس في كاتدرائية نيقيا . غير أن ارسنيوس — رجل الله — كان على وشك الانفجار غضباً لهذا التبديل الخبيث الذي دبر له أنصار باليولوغوس في يوم التتويج ، ولكن فرقة المرتزقة الفرنجة من حول الامبراطور راحوا يلوحون بسيوفهم ، كما وأن الطفل يوحنا سارع في إعطاء الإشارة للبطريرك بموافقته على الأمر الواقع ، وكان يوحنا يرتعد خوفاً عندما علت بعض الأصوات في قلب الكاتدرائية مرددة بأن مصير

الأمة يجب ألا يبقى معلقاً على عنق طفل هزيل .

وتم تتويج باليولوغوس على يد البطريرك ارسنيوس رغم كل شيء . وقام الامبراطور الجديد بتوزيع الهدايا والهبات على أتباعه الذين وقفوا بجواره حتى حصل على التاج البيزنطي .

قام ميخائيل باليولوغوس بخلق عدة مناصب شرفية جديدة في الامبراطورية ووزعها بسخاء على أهله وأصدقائه . فأنعم بلقب « أمير » على واحد من إخوته ، وبلقب سباستوكراتور على اثنين آخرين من أفراد عائلته . كما أنه أنعم على ضابط مرموق في الجيش هو الكسيوس ستراتيجوبيولوس بلقب « قيصر » . ولم يلبث هذا الأخير أن كرم اللقب الذي أنعم عليه فحقق انجازاً فريداً ألا وهو استرداد مدينة القسطنطينية :

كان ستراتيجوبيولوس مكلفاً من قبل باليولوغوس بشن الحرب ضد حكومة ابيروس الانفصالية ، ولكن قوات ابيروس نجحت في الحاق الهزيمة بقوات نيقيا ووقع قائدها ستراتيجوبيولوس في الاسر سنة ١٢٦٠ . ثم وقعت هدنة بين الطرفين البيزنطيين وأطلق سراح ستراتيجوبيولوس . وفي العام التالي أي في سنة ١٢٦١ كان ستراتيجوبيولوس يقوم بجولة استطلاعية على رأس فرقة هزيلة من مرتزقة الغرب حول المواقع المجاورة للقسطنطينية . ولشدة دهشته اكتشف أن العاصمة خالية من أي اجراء دفاعي : فقد كان اسطول البندقية ومعه غالبية الجند الفرنجة في حملة لحصار قلعة على إحدى الجزر في جنوبي البحر الأسود . ولم يتردد ستراتيجوبيولوس في أن يهتبل تلك الفرصة الذهبية ، وقد نجح في دخول مدينة قسطنطين دون عناء يذكر فجر يوم ٢٥ يوليو سنة ١٢٦١ . وفر الامبراطور بلدوين الثاني وأتباعه من العاصمة . وهكذا فإنه في لحظة من لحظات الحظ السعيد كتب ستراتيجوبيولوس نهاية الحكم الصليبي للقسطنطينية في يسر مذهل .

ومن المفارقات العجيبة في التاريخ أن بطل الاسترداد هذا كان قد وقع

أسيراً ـ كما لاحظنا ـ في أيدي حكومة ابيروس ، ثم أطلق سراحه سنة ١٢٦٠ . والأشد غرابة أن هذا « المخلص » الاسطوري قد شاءت له الأقدار أن يقع مرة أخرى اسيراً في أيدي حكام ابيروس . ولقد عجب المؤرخون المعاصرون من أمر وقدر هذا الرجل ، فراحوا يشبهونه بأبطال التاريخ القديم « الاسري » من أمثال قورش وهانيبال وبومبي..

وصل رسول مجهول الهوية في منتصف الليل إلى بوابة القصر الامبراطوري في بلدة بيمفايوم ، على مقربة من أزمير ، وطلب إيقاظ الامبراطور من نومه لأنه يحمل أخباراً هامة للغاية . وقد تولت يولوغيا شقيقة باليولوغوس مهمة إيقاظ صاحب الجلالة . وقدم الرسول رسائل من القيصر ستراتيجوبيولوس تفيد بأنه وفرقته المكونة من ٨٠٠ رجلاً قد استردوا العاصمة القسطنطينية من أيدي الصليبيين . ولم يصدق باليولوغوس عينيه ، واحتجز رجال البلاط ذاك الرسول الهام حتى أتت الأنباء بصدق ما كان يحمله الرسول من قول ورسائل . وجاء رسلٌ آخرون يحملون هذه المرة علامات الانتصار ، وكان من بينها سيف وصولجان الامبراطور الصليبي الهارب بلدوين الثاني وحذاءه وقبعته أيضاً .

وعلى التو جمع ميخائيل باليوغوس مجلس الشيوخ والنبلاء وكبار رجالات وسط علامات البهجة والانتصار ، وتحدث باليوغوس إلى أعضاء المجلس قائلاً : « لقد كانت امبراطورية الرومان في قديم الأزمان تمتد لتشمل الأدرياتيك والدجلة وأطراف اثيوبيا . وبعد سقوط الولايات شاءت الأقدار أن تسقط عاصمتنا ذاتها في أيدي المتبربرين الغربيين . وبينما نحن نلهث في المنفى طريدين ، ابتسم الحظ لنا من جديد وشاءت الارادة العلوية أن ترد لنا مدينة قسطنطين العظيم ، ذلك الأكروبول المقدس للدين والحكم . وإن مهمتنا الآن هي أن نحافظ على هذه المدينة بدرعنا وبسيفنا حتى يكون هذا منطلقاً لانتصارات مقبلة » .

لم يفقد باليوغوس وشعب نيقيا الوقت ، إذ كان الجميع في لهفة زائدة

لدخول مدينة قسطنطين المستردة . وقد تم هذا الدخول المشهود بعد عشرين يوم فقط (في ١٥ أغسطس ١٢٦١) من وقوعها في أيدي البطل ستراتيجوبيولوس . وعندما اقترب الموكب الأمبراطوري من المدينة فتحت له البوابة الذهبية على مصراعيها ، وترجل پاليولوغوس ودخل المدينة في وقار مهيب تتقدمه أيقونة العذراء مريم لكي ترشد خطاه إلى رحاب أياصوفيا .

غير أن البيزنطيين العائدين إلى مدينتهم قد وجودها خراباً تنعي من بناها ، فلقد تلوث القصر الأمبراطوري بوسخ الصليبيين ومخلفاتهم ، وتهدمت أحلى طرقات المدينة وحوانيتها ، وأكلت ألسنة النيران كثيرا من بيوت العبادة وآيات الفن الوثني ، وجردت المباني من نفائسها وزخارفها . أما عن التجارة فقد كسدت في القسطنطينية ، وتناقص عدد السكان فيها مع تناقص مواردها . ولذا فإن أول عمل أقدم عليه پاليولوغوس كان يتمثل في إعادة النبلاء إلى قصور آبائهم ، وإعادة الأراضي إلى ورثتها من البيزنطيين ، كما أنه جلب بعض السكان من الولايات لتعمير العاصمة . وأبقى الأمبراطور على الجاليات اللاتينية من بيازنة وجنوية وبنادقة في العاصمة بعد أن أقسموا له يمين الولاء والطاعـــة .

ثم أعد پاليولوغوس لإعادة التتويج رسميا في أيا صوفيا، وتناسى في هذه المناسبة الخطيرة حقوق شريكه في التاج وتلميذه يوحنا لاسكارس ، وأعيد تتويج پاليولوغوس وزوجه تيودوره في سبتمبر ١٢٦١. ولكي يحتفظ بالتاج لأسرته، عمد پاليولوغوس بعد قليل إلى ابتكار وسيلة يشوه بها يوحنا لاسكارس لكي يحرمه من الحكم ، وكانت هذه الوسيلة الجديدة تتمثل في تقريب قضيب من الحديد الملتهب من عيني يوحنا لقتل عصب الإبصار . وبعد هذه العملية « الوحشية » — وهي تقليد بيزنطي قديم — نقل يوحنا إلى قلعة نائية حيث أمضى بقية عمره في الظلام .

كان البطريرك أرسنيوس قد استقال من منصبه بسبب المعاملة الوحشية

التي لقيها يوحنا الطفل على أيدي ميخائيل پاليولوغوس . ولكن الأمبراطور راح يستعطف البطريرك المستقيل موضحا له أن أعباء الدولة هي التي أملت عليه هذا الموقف ، ووعد أن يحيط يوحنا بالعطف اللازم . وبعد أن سملت عينا يوحنا على هذه المشكلة ، أعلن البطريرك أرسنيوس غضبه الشديد ووقف وقفة حفظها له التاريخ ، فلقد جمع مجمعا من الأساقفة وأنزل بلعنة الحرمان على رأس پاليولوغوس. وصفق البيزنطيون لهذا البطريرك الجسور، وفزع پاليولوغوس أمام خطورة الموقف ، وراح يطرق أبواب أيا صوفيا وهو في رداء التوبة والندم يطلب الصفح والغفران . ولكن أرسنيوس رفض الاستجابة للامبراطور « لأن جرماً كبيراً يستوجب توبة من حجم ذاك الجرم» على حد تعبير البطريرك . وهنا صاح پاليولوغوس في وجه أرسنيوس: «أو ترغب يا أبتي البطريرك في أن أعتزل حكم الأمبراطورية ؟ » ، وتظاهر الأمبراطور بمد يده وكأنه يسلم السيف الأمبراطوري للبطريرك . غير أن البطريرك لاحظ أن پاليولوغوس يمد يده بالسيف ثم يؤخرها ، فتركه البطريرك حيث كان جاثيا وانسحب ، وبقي پاليولوغوس في مكانه جاثياً على ركبتيه غارقاً في دموع الندم [٢] .

وبعد أن أفاق پاليولوغوس من مذلته قرر أن ينتقم من أرسنيوس ، فدبر له مكيدة وعزله من منصبه ثم أرسل به إلى المنفى في جزائر پروپونتس ، كما سيأتي في فصل لاحق .

---

(18) Pachymer's, op. cit., 1, 4, c. 4; Gregoras, Nicephorus, Historia (Bonn ed.). V, 1, B.

الفصل الثالث

تحركات المغول في عصر باليولوغوس بين بيزنطة ومصر المملوكية

« سر من توران إلى إيران مظفراً ، واعل باسمك إلى الشمس الساطعة ، وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه ، في الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك ، في الرقعة الممتدة من جيجون حتى أقاصي بلاد مصر ، بلطفك وأنواع عطفك . أما من يعصيك ؛ فأغرقه في المذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه ، وكل ما يتعلق به (١٩) ..

(منكوخان)

* *

في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد أعلنت الأسرة الحاكمة لشمال الصين وهي أسرة مانكوكن الحرب على قبيلة منغو – تاتا أو المغول . ثم ما لبث آل كن أن عقدوا صلحاً مع الزعيم المغولي أولو بوتزيلي (Aolo-botzile) ؛ وذلك لحاجة الصين إلى معونة المغول في الكفاح ضد التتار الذين كانوا يقيمون

(١٩) يرى بعض الدارسين في هذا الاسم أصلا للكلمة الفارسية « أولج قزيرج أو الوزير الأعظم .

على بحيرة بويرنور (Buir-Nor) . وفي ذلك الصراع المضطرب ظهر نجم زعيم يدعى تموكين الذي كان يقود جماعة من خير محاربي الأستبس الآسيوي . وبعد أن انتصر تموكين على التتار أنعم عليه وانج – خان زعيم شرقي منغوليا بلقب القاخان Qaghan .

هذا وقد ادعى تموكين أنه ينتسب إلى الزعيم الأكبر للمغول قوتولا – قاخان (Qutula-Qaghan) . ووفقاً للروايات المغولية الملحمية بعنوان « يوان – شاو – پي – شي » (Yûan-ch'ao-pi-shi) أي « التاريخ السري لأسرة يوان » ، نجد أن تموكين قد أنشأ عشرة دواوين لبلاطه على الوجه الآتي :

١ – أربعة رجال للإشراف على رماة الدروع والقوس (كورشي) .
٢ – ثلاثة رجال للإشراف على الطعام والشراب (بوكاوول – باوركي) .
٣ – رجل للإشراف على مراعي الأغنام (أكتاكي)
٤ – رجل للإشراف على إعداد العربات (يو – تكي)
٥ – رجل للإشراف على خدم القصر (كربى) (٢٠)
٦ – أربعة رجال للإشراف على حمل السيوف ، ويرأسهم شقيق تموكين المدعو جوكاى – كسار (Juchi-Qasar)
٧ – رجلان للإشراف على تدريب الخيول (أكتاكي) ، ويرأسهما شقيق آخر لتموكين هو بلقو – تاى .
٨ – ثلاثة رجال للإشراف على مراعي الخيول
٩ – أربعة رجال للإشراف على الرسائل المرسلة « بالرمح » (كولا – أويرا) .
١٠ – نبيلان للإشراف على الاجتماعات الملكية ولحراسة شخص الخان الأكبر (كشيكتين) .

---

(٢٠) أخطأ بعض الكتاب عندما نقلوا هذه الكلمة إلى كلمة « حاجب » .

هذا وقد تطور نظام حراسة خان المغول سنة ١٢٠٣ م بعد أن سيطر تموكين على كل منغوليا الشرقية، فكان يحرسه سبعون من الرجال أثناء النهار ، وثمانون أثناء الليل . هذا إلى جانب كتيبة مؤلفة من ألف من « الشجعان » (بهادور) . وفي سنة ١٢٠٦ م نجح تموكين في بسط نفوذه على بقية أجزاء منغوليا ، واتخذ له علماً ذا تسعة أذناب خيل بيض ، علامةً على الرفعة والشرف . واعتلى تموكين العرش المغولي ملكاً وتلقب بلقب جنكيزخان . هذا عن شخص الخان الأكبر ورجال حرسه الذين كانوا يختارون في عناية فائقة من بين أبناء القواد ووجهاء المغول . أما عن الشعب المغولي فلا نكاد نعثر في تاريخ المغول عن اهتمام يذكر بهم ، وإنما تهتم المصادر في الدرجة الأولى بما أسداه الخان الأكبر على حلفاءه من نعم ، وعلى الأرستقراطية المغولية من منن . وعلى هذا لم يكن الشعب المغولي أكثر من أداة طيعة في أيدي حرس جنكيزخان وجهاز حكومته . أما عن أمراء المغول ولقب الواحد منهم «نويون» فهم قمة النبالة المغولية ، وقد شملت هذه الطبقة إخوة الخان الأكبر وأبناءهم . يلي هذا طبقة النبالة العسكرية ، وكان لقب الواحد منهم « تركخان » . وللأمراء العسكر امتيازات طائلة : فهم لا يؤدون الضريبة ، وما يقع في أيديهم من غنائم يصبح حقاً لهم ، ولهم حق دخول القصر الملكي دون إذن مسبق ، كما أن لهم الحق في ارتكاب ثمانية جرائم دون أن يحاسبوا عليها ، وإنما هم يستدعون للحساب عند ارتكابهم للجرم التاسع . وكانت قوات المغول تقسم إلى جيوش تعداد كل منها عشرة آلاف ، لكل قائد أعلى . ونجد على عهد جنكيزخان ثلاثة من هؤلاء القواد : الأول ولقبه « موكول » (Muquli) يقود ميسرة الجيش أو الجناح الشرقي ، والثاني ولقبه « بوقورجي » (Bughurji) ويقود ميمنة الجيش أو الجناح الغربي ، والثالث ولقبه « نايا » (Naya) ويتولى قيادة وسط الجيش . وقد حرمت القواعد المغولية على الجند الانتقال من فرقة إلى أخرى ، وكانت العقوبة لهذه المخالفة هي الإعدام على مرأى من الجند .

أدخل جنكيزخان نظام الكتابة الأويغورية (Uighur) في دواوين

حكومته سنة ١٢٠٦ م ، وقد وكل الإشراف على هذه المهمة إلى موظف هام بلقب « تاشاتون » (Tashatun) ؛ الذي كان له شرف تعليم أبناء الخان القراءة والكتابة باللسان الأويغوري . كذلك كان لهذا الموظف أن يشرف على «ختمي» الخان الأكبر « الأحمر والأزرق » . وكان « الختم » في الأويغورية يعرف باسم « التمغة » ، ويستخدم أحمرهما في غالب المناسبات ، بينما اقتصر استعمال « الأزرق » على كبريات المناسبات ؛ من قبيل ذلك عندما يوجه الخان الأكبر رسائل إلى المقربين إليه من الأسرة المالكة .

وبدخول الكتابة إلى المغول تم وضع القانون العرفي لأمتهم ، وعرف هذا باسم « الياسا » (Yasa) ، وأضيفت إليه أقوال وأحكام جنكيزخان المعروفة باسم « بليك » (Bilik) . وقد صارت هذه المصدر الأول في تصريف أمور المغول على عهد خلفاء جنكيزخان . وأول من برز في المدرسة الجنكيزخانية الجديدة شاب يدعى شيكي — كوتوكو — نويون ، وهو من أصل تتاري ، كانت زوج الخان الأكبر قد تبنته منذ طفولته الباكرة . وقد فوضه جنكيزخان بعد أن أتمّ تعليمه في « إصدار الأحكام وحق الإعدام » ، وكلفه أيضا بأن يحفظ أحكامه مدونةً في « لوحات سوداء حتى لا تمسها يد المخربين » . كذلك احتار جنكيزخان كاهنا أكبر « بيكي » (Biki) [٢١] للمغول من قبيلة يارين ، وزوده بنصحه بأن « يمتطي جواداً أبيض ، ويرتدي رداء ناصع البياض ، وأن يجعل مجلسه في الأعالي من الأماكن ، وأن يتتبع مسار سني الخير وأقمارها ، وبهذه الحكمة يعلم الناس فيتعبدون [٢٢] » :

وبطبيعة الحال لم يكن لأحد في الامبراطورية المغولية كلمة إلا لجنكيزخان فحسب . على أنه في سنة ١٢٠٧ م منح جنكيزخان إلى ابنه الأكبر جيوكاي (Juchi) « أراضي وشعوب الغابات » ، وهي تلك الأراضي الواقعة بين نهري

---

(٢١) يخطىء رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، جامع التواريخ ، فيظن أن لفظة « بيكى » هذه اسماً لعلم.
(22) W. Barthold, Turkestan down to the Mongol invasion, p. 391.

سلنجا وينسي ، وترجع شعوب تلك المنطقة إلى جنس يعرف باسم « الشبير » (Shibir) . وكان العرف عند المغول أن تؤول الممتلكات الخاصة بالأب إلى أصغر أبنائه ، ويتدرج قرب وبعد الأراضي الممنوحة للأبناء وفقاً لأعمارهم بمعنى أن يحصل الأصغر سناً على الأراضي الأكثر قربا والعكس صحيح . وعلى هذا الأساس كان نصيب جيوكاي الابن الأكبر لجنكيزخان في أقاصي الشمال الغربي من الأراضي التي فتحها المغول من أيدي التتار « تلك البقاع القصية التي تعرفها حوافر خيل التتار » .

في سنة ١٢١٥ م هجم جنكيزخان بجحافله على الصين ومزق أعداءه شر تمزيق ، ثم دخل بكين فاتحاً . وقد كان لهذا الانتصار المغولي على الصين أبعد الأثر في ازدياد شهرة جنكيزخان في الشرق والغرب على حد سواء . وسارع الشاه محمد الخوارزمي ، سيد تركستان وايران والعراق ، الذي كان يحلم هو أيضا بدخول بكين ، بايفاد سفارة برئاسة بهاء الدين رازي إلى جنكيزخان . ووصلت السفارة إلى بكين حيث كان الخان الأكبر يحتفل بانتصاره المهول : ووجدت البعثة ولي العهد الصيني ، القان ــ خان ، أسيراً في أيدي المغول ، وبدت لهم في كل بقعة علامات الخراب والدمار ، وكانت عظام القتلى تؤلف تلالاً لا تحصى ، وأما الأرض فكانت مكسوة بطبقة من شحوم البشر . وكانت عفونة جثث الضحايا قد لوثت الأجواء بالأوبئة ، التي راح ضحيتها واحد من رجال السفارة . وعند بوابة بكين كانت تتكوم تلال رهيبة من العظام ، وقيل للسفراء أنه عند سقوط المدينة ألقت ستون ألفاً من بناتها بأنفسهن من على الأسوار هروباً إلى الموت من يد المغول !

استقبل جنكيزخان أعضاء السفارة في بكين وطلب منهم إبلاغ تحياته إلى الشاه الخوارزمي ، وأكد لهم اعترافه بالشاه سيداً على الغرب ، كما وأنه وافق على أن يجوب التجار من رعايا العاهلين في امبراطوريتي الشرق والغرب دون قيود . وقد رد جنكيزخان بسفارة مماثلة إلى الشاه ، وحملها هدايا قيمة من

الذهب ونفائس الصين . وقد نجم عن تبادل هذه السفارات بين الشرق والغرب توقيع اتفاق سلام بين العاهلين .

غير أن حادثاً خطيراً حطم الآمال المعقودة على هذا السلام : فلقد ارتاب الشاه الخوارزمي في أمر قافلة تجارية أرسلها جنكيزخان إلى بلاد الشاه ، فقبض على أفرادها وأعدمهم ، ثم استولى على الكنوز والبضائع التي كانت معهم ، ويقدر عدد هؤلاء التجار بأربعمائة وخمسين ، ويقدر ما كان معهم بخمسمائة ناقة محملة بالحرائر الصينية والذهب والفضة . وقد أفاض في ذكر هذا الحادث الأشأم الكاتب علاء الدين عطا ملك الجويني في كتابه « تاريخ قاهر العالم » (٢٣) :

يقول الجويني إنه عندما وصلت القافلة إلى مدينة أوترار ، كان حاكمها واحداً من أنسباء أم السلطان — تركن خاتون — وهو ابنا لشوك (٢٤) ولقبه غاير — خان أي الخان القدير . وكان من بين أعضاء القافلة هنديٌ تصادف أنه كان على معرفة سابقة بالحاكم ، ولذا فإن هذا الهندي راح يخاطب الحاكم بألفة زائدة عن الحد فناداه باسمه مجرداً من الألقاب ؛ مطمئناً إلى أنه موفد من قبل

---

(٢٣) ولد علاء الدين عطا ملك الجويني سنة ١٢٢٦ م ، وقد التحق بخدمة المغول منذ الصغر فصار من عمال الديوان للأمير أرغون حاكم ايران من قبل المغول . وعندما قدم هولاكو إلى إيران التحق الجويني بخدمته وصحبه في حادثة بغداد ، ثم ولي حاكما على العراق في عهد هولاكو وابنه آباقا خان إلى أن توفي . وقد بدأ الجويني في كتابه تاريخه « قاهر العالم » سنة ١٢٥٢م في بلدة قره قورم . ويقرر الكاتب أن نسبه يرجع إلى أسرة جويني الخرسانية من شمال غربي نيسابور . وآل جويني كانوا يحتلون مناصب كبرى في ظل حكم السلاجقة والخوارزميين ، وهم يدعون النسب إلى الفضل ابن الربيع الذي خلف البرامكة في خدمة هارون الرشيد . وقد قام الجويني بزيارة بلاط خان المغول منكو سنة ١٢٥٣ م . ونعتمد هنا على ترجمة انجليزية للنص الفارسي ، وهذه الترجمة هي :
Ata-Malik Juvaini, The History of the World Conqueror, translated from the text of Mirza Muhammed Qazvini into English by John Andrew Boyle, vol. 1, pp. 71 ff.

(٢٤) تصغير لكلمة اينال التركية .

الخان المغولي الأكبر . ولقد تضايق اينالشوك من هذا المسلك الأرعن ، وفي نفس الوقت حدثته نفسه بالصيد الثمين الذي كان يحمله هؤلاء القوم ، فألقى القبض عليهم وأرسل رسولا إلى الشاه ليعلمه بأمرهم . وقد أمر السلطان — دون روية — باعدام هؤلاء التجار والاستيلاء على بضائعهم وكنوزهم . وهنا يقرر الجويني أن الشاه بفعله هذا قد « عرض حياته للهلاك ، وعرى أفراخه ليقص جناحها وهي بعد زواغب » (٢٥) .

غير أن واحداً من هؤلاء التجار كان قد نجح في الفرار من السجن قبل وصول أمر الشاه ، ويمم كالريح قبالة بلاط الخان المغولي الأكبر ، وأبلغه بالأمر .

انقلب عقل جنكيزخان غضباً ، وفارقه هدوءه ، وتملكته عاصفة من الغضب ، فألقت برماها في عيني البصر والرحمة ، وتأججت نار الغيظ فجفت الدموع من عينيه ، ولم يعد يكفي لريها سوى سفك الدم . وفي نوبته المحمومة تلك صعد الخان منفرداً إلى قمة الجبل عاري الرأس ، وولى وجهه شطر الأرض من تحت قدميه ومكث أياما ثلاثة بلياليها يتلو صلاته متمتما « إليّ بالقوة فأنتقم » . « أمن يدفن جذرا جافاً يجني منه ثماراً ؟ » ، هكذا يتساءل الجويني (٢٦) .

على أن الرواية المغولية ، وفقا لما نطالعه في « أعمال بعثة بكين (٢٧) » تقرر أن السلطات الخوارزمية قتلت السفير المغولي الذي كان على رأس سفارة جنكيزخان إلى الشاه محمد ، وقتل معه أيضا تسع وتسعون آخرون (٢٨) . ويقال أن جنكيزخان قد أرسل ثلاثة من سفراءه إلى الشاه للاحتجاج على غدره برجال المغول ولطلب تسليمهم اينالشوك . ولكن الشاه لم يكتف برفض الطلب

---

(٢٥) الجويني ، نفس المصدر : « ليت من يملك عقلا يتدبر عزم الأمور » . ص ٨٠ .

(26) Juvaini, op. cit., p.81.

(27) Works of the Peking Mission, IV, 143.

(28) See W. Barthold, op. cit., p. 400; conf. A. Muller, Der Islam, ii, 205.

وإنما أمر بقتل السفير وبجز لحية صاحبيه .

وهناك من قائل بأن الخليفة العباسي الناصر قد استنجد بالمغول ضد الشاه محمد . ولكن هذا القول لا يعدو أن يكون مجرد ترديد لمزاح أهل العصر وتندرهم وهذا لا يختلف كثيراً عن تلك الأقاويل التي أشيعت في غرب أوربا أثنــاء الصراع بين فردريك الثاني والبابا ، فقد قيل وقتها ان البابا قد استنجد بالمغول ليخلصوه من شر فردريك .

ويجدر بنا أن نقرر أنه حتى لو لم يقع هذا الحادث ــ حادث قتل التجار المغول ــ فإن جنكيزخان كان سيجد مبرراً آخر للحرب ، وذلك للقضاء على امبراطورية الخوارزميين ، خاصة بعد أن أطلعه العيون بأن الامبراطوريــة تمر بمرحلة تدهور واضطراب شديدين . وكان الشاه على خلاف وعداوة مع كشلوك سيد كشغارية ، الذي اضطهد سكان البلاد المسلمين اضطهاداً بالغا ، كما نطالع عند الجويني [٢٩] .

أطلق جنكيزخان جيوشه بقيادة جيبي نويون قبالة الغرب ، وسقطت كشغر في أيدي المغول ، وقبض على كشلوك وقطعت رأسه . وتوالى سقوط مدن شرقي تركستان الواحدة بعد الأخرى في أيدي المغول . ويقرر الجويني أن المغول أظهروا تسامحا دينياً مع الأهلين ، « فعاد الآذان والتكبير » بعد هلاك كشلوك :

إن أشاع الله نوراً في شمعة
فإن من يطفئها يحرق لحيته [٣٠]

(29) Juvaini, 1, 50-51, pp. 65-66 :

« دخل كشلوك إلى كوتان واستبد بها وبأهلها ... وخلت المآذن من الدعاة الصالحين وأغلقت المدارس التي كانت تعلم أصول الدين ... وقام كشلوك بصلب بعض الائمة على أبواب مدارسهم ... لقد ساد الشر والارهاب على رقاب العباد ، الذين ابتهلوا إلى السماء بأن ينتقم الله من هذا الفرعون الجديد ويحرر الأرض من ظلمه ... »

(30) Juvaini, pp. 67-68.

بعد انتصار المغول على كشلوك قرر جنكيزخان أن يخوض الحرب ضد الشاه محمد الخوارزمي بنفسه . وتجمعت جيوشه مع جيوش حلفاءه عند بلدة كوالي (Qayaligh) . وحلفاء جنكيزخان في هذه الحرب هم : سقناق — تاجين سيد الألماق (الألماليغ) وبورشيق سيد الأويغور ثم قرلون أرسلان خان . وبينما يقدر رشيد الدين الهمذاني عدد جيش جنكيزخان بحوالي١٢٩,٠٠٠ مقاتلاً ، يقدره الجويني بحوالي ٦٠٠ ألفاً . ويقدر برتولد عدد جند المغول في هذه الحرب بمائتين ألفا على أكثر تقدير [٣١] . ويرى دوسون أن عدد جنود الشاه الخوارزمي كان أكثر بكثير من عدد جند المغول ، ولكن نظراً لخلاف الشاه مع قواد جيشه وشعبه ، لم يكتب له النصر [٣٢] . ويقال إن الشاه قد أمر بجباية الضريبة السنوية المقررة ثلاث مرات ، لأنه شرع في بناء سور كبير يبلغ طوله ١٢ فرسخاً حول مدينة سمرقند .

وقد حضر بنفسه أثناء إقامة قلعة في هذا السور محاطة بالخنادق ، وفوجىء الحضور بصوت يردد « إن المغول إن هم قذفوا بأسواطهم في الخندق لطمسوه جميعاً » . ولقد تطير الشاه ورجال بلاطه شؤماً عند سماع هذه العبارة [٣٣] . ويروي الجويني قصة عن محاولة لاغتيال الشاه ، والمعروف أنه كان على خلاف شديد مع والدته وكبار رجالات جيشه .

على مقربة من مدينة أوترار قسم جنكيزخان قواته ، فكلف الميسرة وغالبيتها من الجند الأويغور بمهمة ضرب الحصار حول المدينة . وسير جيشا آخر بقيادة ابنه جوكاي على نهر سرداريا ، وزحف جيش ثالث قوامه ٥٠٠٠ رجلاً قبالة بناكات (Banakath) وكوجند ، وقاد جنكيزخان بنفسه جيشا آخر — يعاونه ابنه تولوي — نحو بخاري ، بهدف القطع بين الشاه وبين قواته الأخرى .

(31) Barthold, op. cit., loc. cit.
(32) Dohson, Histoire des Mongols, i, 212.
(33) Nasawi, Historia du Sultan Djelal ed-din Mankobirti, texte arabe ed. et trad. par O. Houdas, p. 24.

سارع حاكم أوترار واسمه بدر الدين أحمد بالاستسلام لجنكيزخان والانضمام إليه ، وقد أطلع الخان الأكبر على أسرار الدولة وخلافات الشاه مع ضباطه ووالدته . ثم سلمت لجنكيزخان مدينة زرنوق دون مقاومة ، وقد أطلق عليها المغول اسم « قتلق – بالين » أي « المدينة المحظوظة » . ثم زحف المغول على بلدة نور ، ففر أهلها مذعورين ، تاركين البلدة لنهب العدو . ووصل جنكيزخان إلى بخاري في فبراير ١٢٢٠ م ، وضرب حولها حصاراً قاسياً . ولما لم تفلح جهود المدافعين عن بخاري ، خرج بدر الدين قاضي – خان على رأس وفد من أهل البلدة يعرضون تسليم مدينهم للخان الأكبر بشرط الأمان . ورغم هذا فإن المغول نهبوا المدينة وقتلوا الأهلين وانتهكوا الحرمات وداسوا المقدسات. غير أن جماعة من علماء البلدة ثاروا لما رأوا من مهانة ، واستشهد منهم عدد كبير ، وهم يقاومون جنون المغول بالأظافر ، ومن بين هؤلاء الأبطال ركن الدين إمام – زاده ، والقاضي صدر الدين خان ، ثم مجد الدين مسعود ، وهو شقيق للوزير نظام الملك (٣٤) . ويروي الجويني أن جنكيزخان قد جمع الأهلين في المصلى واعتلى المنبر وألقى عليهم تهديداً قاسيا ، فقال : « أيها القوم ! إعلموا أنكم لا بد قد اقترفتم إثما عظيما ، وكباركم آثامهم أكبر . ولئن سألتموني للتدليل على صدق قولي ، فإني أرد عليكم : إني أمثل عقاب الله على الأرض ، فلو أنكم لم ترتكبوا الإثم ما أرسل الله عقابا مثلي عليكم » (٣٥) .

بعد أن جرد جنكيزخان ورجاله المدينة من أموالها ونفائسها ، أشعل النار فيها . وبعدها زحف المغول من بخاري قبالة سمرقند ، يجرون في مواكبهم أعدادا لا تحصى من الأسرى وراء خيولهم ، ومن انهارت قواه عن السير كان يقتل على التو . ثم ضرب جنكيزخان حصاراً حول سمرقند دام خمسة أيام ، وسقطت المدينة في أيدي المغول ، فدارت فيها المذابح الرهيبة ، ويقدر عدد الضحايا بحوالي سبعين ألفاً . ثم جمع المغول قوات الجند الترك التي كانت تدافع

(34) Nesawi, op. cit., loc. cit.

(35) Juvaini, p. 105.

عن سمرقند وقتلوهم جميعا ، ويقدر عددهم بحوالي ثلاثين ألفاً . وهكذا دمر المغول مدائن تركستان الواحدة بعد الأخرى ، ثم عبروا نهر أموداريا . ولما أن وصلت تلك الأنباء المروعة إلى الشاه محمد الخوارزمي في نيسابور (١٨ ابريل سنة ١٢٢٠ م) ، بادر بتسليم صندوقين مليئين بالأحجار الثمينة إلى أحد أتباعه المدعو الأمير تاج الدين عمر البستامي ليخبئها في قلعة حصينة على مسيرة ثلاثة أيام من الري . ولكن تلك القلعة المنيعة « أقوى قلاع العالم » — على حد تعبير المعاصرين — سقطت هي الأخرى في أيدي المغول ، وضاع معها الكنز الثمين .

أمام هذه الهزائم المتتالية فرّ الشاه من الري إلى بلدة قزوين ، حيث كان ولده ولده ركن الدين جورشانكي يعسكر على رأس ثلاثين ألفاً من المقاتلين . ولكن هذه القوة لم تكن كافية لصد هجمات المغول ، فهرب الشاه وبعض رجال بلاطه إلى قلعة قارون ومنها إلى بغداد . ثم يمم الشاه إلى بحر الخزر ولجأ إلى جزيرة في هذا البحر على مقربة من بلدة أبا سكون (ربما كانت الجزيرة المعروفة اليوم باسم آشور — آدى) . وفي ملجأه القاسي أصيب الشاه بالتهاب رئوي وتوفي على أثره في سنة ١٢٢١ م . ويقال إنه لم يكن هنالك ما بقي من مال يكفي لشراء الأكفان للشاه ، فتبرع واحد من خدمه بقميصه للوفاء بهذا الغرض (٣٦) .

وبعد أن سقطت ايران في أيدي جنكيزخان توقف عن الزحف غربا ليستجم بضع سنوات في البوادي التي فتحها ، وبعدها قصد إلى موطنه الأصلي . وفي سنة ١٢٢٥ م زحف جنكيزخان على مملكة التنكت الواقعة بين الصين الشمالية والجنوبية ، ولكنه توفي قبل سقوط العاصمة المحاصرة ببضعة أيام ، في أغسطس ١٢٢٧ م .

بعد موت جنكيزخان خلفه في الحكم ابنه الثالث أوقطاي واتخذ مقره على ضفاف نهر أورخون . وفي سنة ١٢٤٢ توفي أوقطاي فخلفه أخوه جغطاي .

---

(36) Nesawi, p. 153.

وفي خلال تلك الفترة عهد إلى الأمير باطو – وهو ابن الأمير جوجي باخضاع بلدان أوربا الشرقية ، فاجتاح روسيا سنة ١٢٤٠ ، وبولندة سنة ١٢٤١ ، ثم ضرب المجر ودلماشيا ، ثم انقض على البلغار ومزق كيانهم شر تمزيق .

ثم نشبت في بيت جنكيزخان خلافات على الحكم انتهت باعتلاء منكوخان أكبر أبناء الأمير طولوي العرش المغولي . وقد أقدم الخان الجديد على قتل أبناء عمومته جميعا لأنهم تباطأوا في تقديم الولاء والطاعة له في الحين المطلوب . ثم كلف منكوخان أخاه هولاكو بمهاجمة الشرقين الأوسط والأدنى :

وهولاكو خان هو الابن الرابع لطولوي خان ، الابن الرابع لجنكيزخان ، وأمه هي سيودقوقيتي بيكي ، ابنة جاكمبو أخي أونك خان ملك أقوام كرايت . وكان لهولاكو خان نساء وسراري كثيرات ، منهن المشهورات اللائي وصلن إليه عن أبيه بحكم القانون المغولي (الياسا) ، وأهمهن جميعاً امرأته العظمى دوقوز خاتون من الأصل العريق لقبيلة كرايت ، وهي ابنة ايقو بن اونك خان ، ولم يكن طولوي خان – والد هولاكو – قد دخل بها . وكانت عادة المغول ولاسيما الأمراء أنه إذا مات أحدهم أصبحت زوجاته ميراثا لابنه الأكبر (٣٧) .

كانت دوقوز خاتون من أقوام كرايت الذين كانوا مسيحيين في الأصل ، ولذا فإن هولاكو كان يعمل على رعاية المسيحيين وإعزازهم إرضاء لها (٣٨) .

عهد الخان الأكبر منكوخان (منكوقا آن) إلى أخيه هولاكو بمهاجمة الشرق الأدنى وزوده بالنصح على الوجه الآتي : « سر من توران إلى ايران

---

(٣٧) رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، جامع التواريخ ، جـ ٢ ص ص ٩١ – ٩٥ . (نقله إلى العربية محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداوي ، فؤاد عبد المعطي الصياد ، راجعه يحيى الخشاب .

(٣٨) من بين زوجات هولاكو الأخريات كويك خاتون ، قوتوى خاتون ، أولجاى خاتون ، وسونجين خاتون . وكان لهولاكو أربعة عشر ولداً وسبع بنات .

مظفراً ، واعل باسمك إلى الشمس الساطعة ، وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه ، في الكليـــات والجزئيات ، وخص كل من يطيـــع أوامرك ويجتنب نواهيك ، في الرقعة الممتدة من جيجون حتى أقاصي بلاد مصر — بلطفك وأنواع عطفك وإنعامك . أما من يعصيك ؛ فأغرقه في المذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه ، وكل ما يتعلق به ... وأبدأ باقليم قهستان في خراسان ، فخرب القلاع والحصون ، ... فإذا فرغت من هذه المهمة ؛ فتوجه إلى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد ، الذين يقطعون الطرق عن سالكيها . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة ، فلا تتعرض له مطلقا ، أما إذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين ... وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشئون » (٣٩) .

سار هولاكو على رأس جيشه مصطحباً معه زوجتيه الكبيرتين دوقوز خاتون وأولجاي خاتون وكذلك ابنيه آباقا ويشمون ، فوصلوا إلى حدود المآليغ واستقبلوا في حفاوة بالغة ، ومنها إلى تركستان ما وراء النهر فبادر الأمير مسعود بيك بتقديم فروض الطاعة . وتقدم هولاكو فنزل في سمرقند بمراعي كان كل فأقام له مسعود بيك خيمة منسوجة بالذهب ، حيث أمضى ما يقرب من أربعين يوماً وهو منصرف للشراب (٤١) . ثم تحرك إلى حدود كسن وهي في جنوب غربي سمرقند ، فأقبل أمراء خراسان لتقديم الخضوع والهدايا إليه . ومن كسن أرسل هولاكو عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في إيران لمساعدته في القضاء على شأفة جماعة الحشيشية : « بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة . فإن أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ، وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم ، فإننا حين

---

(٣٩) رشيد الدين الهمذاني ، ص ص ٢٣٥ — ٢٣٧ .

(٤٠) نفس المصدر ، ص ٢٣٩ .

نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لا نقبل غدركم ، ونتوجه إليكم فيجري علي ولا يتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم [41] » . بعد هذا طارد جنود هولاكو جماعة الحشاشين في أرجاء فارس كلها وأعملوا في رقابهم السيوف . وكان أمر الحشاشين قد آل إلى آخر زعمائهم ركن الدين الذي فرّ إلى حصن ميمون في ناحية ألموت ، حيث أقام معه نصير الدين الطوسي ، الرياضي الفلكي الشهير . ونصح له نصير الدين بالاستسلام ، ولكن ركن الدين قتل بينما كان يُحمل إلى معسكر هولاكو (وفي رواية أخرى قتل بأمر منكوخان) بينما حظي نصير الدين الطوسي برضا هولاكو وعينه منجما للبلاط وعهد إليه في انشاء المرصد الفلكي الكبير في مدينة مراغة بأذربيجان .

بعد هذا أصبح هولاكو على مقربة من أمور الخلافة العباسية في بغداد ، كان قد تعاقب على عرش الخلافة خلفاء مستضعفون هم الظاهر بأمر الله ، المستنصر بالله والمستعصم بالله ، الذي سقطت بغداد في عصره في أيدي هولاكو في ١٧ يناير سنة ١٢٥٨ م الموافق صفر سنة ٦٥٦ هـ :

« لما رأى الخليفة المستعصم أن الأمر قد خرج من يده ، وبعد خراب البصرة خرج (من بغداد) ومعه أبناؤه الثلاثة : أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك ، وكان معه ثلاثة آلاف من السادات والأئمة والقضاة والأكابر وأعيان المدينة . ثم قابل هولاكو خان ، فلم يبد الملك غضبا قط ، وكلمه بالحسنى ثم قال له بعد ذلك : « مر حتى يضع سكان المدينة أسلحتهم ، ويخرجوا لكي نحصيهم » . فأرسل الخليفة من ينادي في المدينة ليضع الناس أسلحتهم ، ويخرجوا . فألقى الناس أسلحتهم زمراً زمراً ، وصاروا يخرجون ، فكان المغول يقتلونهم . ثم أمر بأن تقام الخيام للخليفة وأبنائه وأتباعه ببوابة كلواذي في معسكر كيتوبوقا نويان ، ونزلوا فيها ، وعهدوا بحراستهم إلى عدد من المغول ، وكان الخليفة ينظر بعين الحقيقة إلى هلاكه ، ويأسف على

---

(٤١) رشيد الدين الهمذاني ، ص ٢٤٠ .

تركه الحزم » . قال في نفسه : لقد فاز عدوي إذ رآني . قد وقعت في الشرك كالطائر الحذر » . وكان بدء القتل العام والنهب في يوم الأربعاء السابع من صفر ، فاندفع الجند مرة واحدة إلى بغداد ، وأخذوا يحرقون الأخضر واليابس ما عدا قليلاً من منازل الرعاة ، وبعض الغرباء .

وفي يوم الجمعة التاسع من صفر دخل هولاكوخان المدينة لمشاهدة قصر الخليفة ، وجاس في الميمنية ، واحتفل بالأمراء . ثم أشار بإحضار الخليفة ، وقال له : « إنك مضيف ونحن الضيوف . فهيا احضر ما يليق بنا » . فظن الخليفة أن هذا الكلام على سبيل الحقيقة ، وكان يرتعد من الخوف ؛ وبلغ من دهشته أنه لم يعد يعرف مكان مفاتيح الخزائن . فأمر بكسر عدة أقفال ، وأحضر لهولاكو ألفي ثوب وعشرة آلاف دينار ونفائس ومرصعات وعددا من الجواهر ، فلم يلتفت هولاكو إليها ومنحها كلها للأمراء والحاضرين ثم قال للخليفة : « إن الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهرة ، وهي ملك عبيدنا . لكن اذكر ما تملكه من الدفائن . ما هي وأين توجد » . فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر . فحفروا الأرض حتى وجدوه . كان مليئا بالذهب الأحمر ، وكان كله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال . وبعد ذلك صدر أمر باحصاء نساء الخليفة ، « فعدوا سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة » [٤٢] .

---

(٤٢) رشيد الدين الهمذاني ، ص ٢٩٣ .

ابن خلدون – العبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم ... المجلد الثالث القسم الخامس – منشورات دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٨ – ص ص ١١٠٦ – ١١٠٧ : « ونزل هولاكو بغداد ، وخرج إليه الوزير مؤيد الدين بن العلقمي فاستأمن لنفسه ورجع بالأمان إلى المستعصم ، وانه يبقيه على خلافته كما فعل بملك بلاد الروم . فخرج المستعصم ومعه الفقهاء والأعيان فقبض عليه لوقته ، وقتل جميع من كان معه . ثم قتل المستعصم شدخا بالعمد ووطأ بالاقدام ... وذلك سنة ست وخمسين . وركب إلى بغداد فاستباحها واتصل العيث بها أياما ، وخرج النساء والصبيان وعلى رؤسهم المصاحف

وفي مساء الأربعاء الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) قضى المغول على الخليفة وأولاده وخدمه ، ولم ينج أحد من العباسيين إلا الإبن الأصغر للخليفة الذي أخذته الخاتون أوبحاي زوج هولاكو فأرسلته إلى مراغة وزوجوه من امرأة مغولية .

ثم استولى هولاكو على « الجزيرة » وحصن ميافارقين وآمد وروحه ودنيسر ونصيبين وحران ، ثم عبر الفرات وحاصر حلب التي استولى عليها سنة ١٢٥٩ م (٦٥٧ هـ) ، وأباح المغول القتل والسلب سبعة أيام . وفي أثناء القتال كان هولاكو يشجع جنده بقوله « كما أن اللون الأحمر يكون زينة للنساء ، فكذلك للرجال تكون الدماء الحمراء على وجوههم ولحاهم زينة لهم » (٤٣) .

ثم قصد جمع من أكابر دمشق وأعيانها إلى هولاكو ومعهم التحف والهدايا ومفاتيح بوابات المدينة ، وأظهروا له الخضوع ، وسلموه المدينة . فأوفد إليهم إليهم كيتوبوقا فاستقبله الأهلون وطلبوا الأمان . وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال .

ثم جاءت الأنباء إلى هولاكو أن الخان الأكبر منكوقا آن قد توفي ، فامتعض وتألم كثيراً، ثم ترك الأمر إلى كيتوبوقا وسافر من حلب إلى أخلاط (١٢٥٨ م — ٦٥٨ هـ) .

كان هولاكو قد أرسل قبل أن ينصرف من الشام ، رسولا مغوليا وبصحبته

والألواح فداستهم العساكر وماتوا أجمعين . ويقال إن الذي أحصى ذلك اليوم من القتال ألف ألف وستمائة ألف ، واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعد ، وألقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعا في دجلة ، وكانت شيئا لا يعبر عنه مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح في كتب الفرس وعلومهم .

(٤٣) رشيد الدين الهمذاني ، ص ٣١٧ .

أربعون من الأتباع إلى سلطان مصر يقول : « إن الله تعالى قد رفع شأن جنكيزخان وأسرته ، ومنحنا ممالك الأرض برمتها ، وكل من يتمرد علينا ، ويعصى أمرنا ، يقضى عليه مع نسائه وأقاربه والمتصلين به ، وبلاده ورعاياه ، كما بلغ ذلك أسماع الجميع . أما صيت جيشنا الذي لا حصر له ؛ فقد بلغ له ؛ فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار . فإذا كنت مطيعاً كخدم حضرتنا ، فأرسل إلينا الجزية ، وأقدم بنفسك ، واطلب الشحنة ، وإلا فكن مستعداً للقتال » (٤٤) .

ولما وصل رسل هولاكو إلى مصر ، أحضر السلطان المملوكي قطز الأمراء المماليك واستشارهم في الأمر وقال : « لقد توجه هولاكو خان من توران إلى ايران بجيش جرار ، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته ، واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء إلى دمشق . ولو لم يبلغه نعي أخيه ، لألحق مصر بالبلاد الأخرى ، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتبوقا نويان الذي هو كالأسد الهصور ، والتنين القوي في الكمين . وإذا قصد مصر ، فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته . فيجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة » (٤٥) .

واستطرد السلطان قطز قائلا « والحالة هذه ، فإن كافة بلاد دياربكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يبابا ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل فخلت من الأزواج والأبقار والبذور . فلو أننا تقدمنا لقتالهم ، وقمنا بمقاومتهم ، فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفراً إلا المغرب ، وبيننا وبينه

---

(٤٤) الهمذاني ، ص ٣٠٠ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٣٣١ .

مسافات بعيدة [٤٦] » . فأجاب ناصر الدين قيمري « ليس هناك مصلحة أيضا في مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم » . وقال أيضا بقية الأمراء : « ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك » . عندئذ قال قطز : « إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعا إلى القتال . فإذا ظفرنا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق [٤٧] » . ثم أمر قطز بصلب رسل المغول بالليل . وقد داهم قطز الجيش الذي كان كيتوبوقا قد أرسله إلى غزة بقيادة الأمير بايدر وطارده حتى نهر العاصي . ودارت المعركة الفاصلة بين المماليك والمغول في عين جالوت بفلسطين ، وقاتل المماليك قتالاً مستميتاً . ولقد أعطى قطز المثل الأعلى في الفروسية والشجاعة ، فعلى صيحاته « وإسلاماه وإسلاماه » ألقى المماليك بكل ثقلهم في قتال العدو ، فأوقعوا بالمغول هزيمة كاملة ، وقتل قائدهم كيتوبوقا في المعركة (١٢٦٠ م) . وهكذا تبددت الأسطورة القائلة بأن المغول قوم لا يهزمون . وكانت عبارة قطز إلى كيتبوقا قبل أن يأمر بقطع عنقه : « لا تفخر بفرسان توران ، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة مثل رستم بن داستان » [٤٨] .

وبعد معركة عين جالوت تخلص الظاهر بيبرس البندقداري من السلطان قطز واعتلى الحكم في مصر سلطاناً . وكان هدف بيبرس الأول أن يتصدى للمغول الذين كونوا أسرة حاكمة في فارس عرفت باسم الايلخانات أو الهولاكيين . ومن أجل هذا الغرض خطط بيبرس لتوطيد علاقاته مع المغول القبشاق الذين كانوا قد استقروا في وادي الفولجا وعرفوا بمغول « القرن الذهبي » . وقد اعتنق زعيهم الخان بركة الإسلام . ولذا فإن السلطان بيبرس أوفد سفارة ودية إلى الخان بركة [٤٩] عن طريق القسطنطينية فالقرم ثم الفولجا . وقد استجاب

---

(٤٦) الهمذاني ، ص ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٤٧) الهمذاني ، ص ٣١٣ .

(٤٨) الهمذاني ، ص ٣١٥ .

(٤٩) ورد ذكر هذه السفارة عند ابن الفرات والنويري .

الخان بركة لهذه المبادرة المصرية فرد بدوره بسفارة ودية إلى القاهرة سنة ١٢٦٣م . والمعروف أن الخان بركة كان على عداء شديد مع بني عمومته ايلخانات فارس ؛ وهؤلاء كانوا الأعداء الألداء للمماليك في مصر . ولذا فليس غريبا أن نعلم أن اسم الخان بركة كان يذكر في صلاة الجمعة في المساجد بعد اسم السلطان في كل من القاهرة والقدس ومكة والمدينة ، كما أن بيبرس قد تزوج من ابنة الخان بركة (٥٠) .

تطلبت تلك العلاقات الوثيقة بين تتار القرن الذهبي وبين مصر المملوكية أن تقوم علاقات من المودة وحسن التفاهم بين السلطان بيبرس والأمبراطورية البيزنطية المستردة . ومن هنا جاءت الاتصالات الدبلوماسية بين بيبرس وميخائيل الثامن پاليولوغوس. وكانت هذه العلاقات الحسنة أمراً طبيعياً بسبب ما كان يحمله كل من بيبرس وميخائيل الثامن من كراهية شديدة وعداوة صريحة للصليبيين في الشام . ولكي يبرهن ميخائيل الثامن لباليولوغوس على صدق نواياه تجاه مصر المملوكية أمر بإعادة بناء مسجد القسطنطينية الذي كان الصليبيون قد دمروه عندغزوهم للمدينة سنة ١٢٠٤ م .

هذا وكانت غزوات المغول للشرق الأدنى قد قضت على النفوذ السياسي السياسي للأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى ، فقد ألحق المغول هزيمة ساحقة بالسلاجقة الروم في موضع يسمى كوسه داغ ، واضطر سلطان الروم في قونية وهو غياث الدين كيخسرو ، الى الاعتراف بتبعيته وبلاده إلى خانات المغول ونائبهم الأمير بايجو نويان (٥١) .

وما من شك في أن ميخائيل الثامن پاليولوغوس كان يشعر بالارتياح لتحطيم المغول لقوة السلاجقة الروم في قونية ، ولكنه في نفس الوقت كان

---

(50) Stanley Lane Poole, History of Egypt in the Middle Ages, pp. 265-266.

(51) رشيد الدين الهمذاني ، ص‌ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

يخشى أن ينزل به جند هولاكو نفس المصير الذي حل بسلاطين السلاجقة . ونحن نطالع في « تاريــخ » الهمذاني أن هولاكو عنــدما أرسل بايجونويان إلى آسيا الصغرى أمره بالآتي : « يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الولاية ، حتى شاطىء البحر من يد أبناء الفرنج ومن الكفار » . والمقصود هنا بالفرنج الصليبيين بطبيعة الحال ، أما عن الكفار فيظن كاترمير أنها تعني « الأرمن والاغريق » (٥٢) .

ولذلك فإن ميخائيل الثامن قد سعى إلى طلب مودة ورضى هولاكو اتقاءً لشره ، ولعل هذا التقارب يفسر السر وراء احتجاز سفراء مصر المملوكية إلى القسطنطينية لبعض الوقت (١٢٦٥ م) . ولعل هذا التقارب بين ميخائيل الثامن ميخائيل الثامن وهولاكو هو الذي حفز بركة خان تتار القرن الذهبي إلى إعلان الحرب على بيزنطة ؛ تلك الحرب التي شارك فيها القيصر البلغاري قسطنطين تلك مع جند بركة الذين كانوا تحت إمرة نوجاي . ولقد نجح تتار القرن الذهبي والبلغار في إلحاق الهزيمة بجيش ميخائيل الثامن . وبعدها اضطر ميخائيل الثامن إلى التخلي عن صداقته مع هولاكو وايلخانات فارس ، وراح يتودد إلى المماليك في مصر وأنسبائهم تتار القبشاق أو القرن الذهبي . ولكي يوثق ميخائيل الثامن من علاقاته مــع تتار القرن الذهبي زوج قائدهم نوجان من إحــدى بناته ، وإن كانت ابنة غــير شرعية تلك التي زفت إلى توجان ! وهكذا توثقت العلاقات بين ميخائيل الثامن ومصر المملوكية ، وبخاصة على عهد السلطـــان قلاوون (١٢٧٩ ــ ١٢٩٠ م) ، إذ عقد الطرفان معاهدة ودية وتجارية سنة ١٢٨١ ، وردت أخبارها عند القلقشندي في وثيقتين هامتين (٥٣) .

---

(52) Etienne, Marc Quatrémere, Histoire des Mongols de la Perse, 1, 96.

(٥٣) صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، أبو العباس محمد بن علي القلقشندي (٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) ، تراثنا ، جـ ١٤ ، ص ص ٧٢ – ٧٨ : « فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الاسلام في كتابة نسخ من دواوينهم» .

الوثيقة الأولى موجهة من ميخائيل الثامن إلى السلطان قلاوون :

« إذ قد أراد السلطان العظيم ، النسيب ، العالي ، العزيز ، الكبير الجنس ، الملك ، المنصور ، سيف الدين (قلاوون) صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، أن يكون بينه وبين مملكتي محبة — فمملكتي تؤثر ذلك ، وتختار أن يكون بينها وبين عز سلطانه محبة . ولهذا وجب أن يتوسط هذا الأمر يمين واتفاق : لتدوم المحبة التي بهذه الصورة فيما بين مملكتي وعز سلطانه ثابتةً بلا تشويش . فمملكتي هذا اليوم ، وهو يوم الخميس الثامن من شهر آيار من التاريخ (الرومي) التابع لسنة ستة آلاف وسبعمائة وثمانين لآدم — تحلف بأناجيل الله المقدسة ، والصليب المكرم المحيي ، أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم ، النسيب العالي ، العزيز ، الكبير الجنس ، سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، ولولده ولوارث ملك عز سلطانه : محبة مستقيمة ، وصداقة كاملة نقية ، ولا يحرك ملكي أبداً على عز سلطانه حربا ، ولا على بلاده ولا على قلاعها ، ولا على عساكره ؛ ولا يتحرك ملكي أبداً على حربه ، بحيث أن هذا السلطان العظيم ، النسيب ، العالي ، العزيز ، الكبير الجنس ، الملك المنصور ، سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولد مملكتي الحبيب الكمينوس ، الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوغس — الملك ايرلنك ، ولا يحرك عز سلطانه على مملكتنا حربا قط ، ولا على بلادنا ، ولا على قلاعنا ، ولا على عسكرنا ؛ ولا يحرك أحداً آخر أيضا على حرب مملكتنا . وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانه أيضا مطلقاً (آمنين لهم) أن يصبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق ، ويتوجهوا إلى حيث يسيرون من عز سلطـــانه . وكذلك يعودون إلى عز سلطانه . وأن لا يحصل للتجـــار الواردين من بـــلاد عز سلطانه (ضرر) من بلاد مملكتي ، لا يحذرون من أحد جوراً ولا ظلماً . بل يكون لهم مباحا أن يعملوا متاجرهم . ونظير هذا — التجار الواردون إلى بلاد عز سلطانه من أهل بلاد ملكي ، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم ، وليقم كذلك

التجار الواردون من بلاد عز سلطانه إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم. وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانه، فلا ينال هؤلاء تعويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانه والذين من أهل سوداق إن حضر صحبتهم حمالين وتجار، فليعودوا بهم إلى بلاد عز سلطانه بلا عائق ولا مانع. ما خلا إن كانوا نصارى، لأن شرعنا وترتيب مذهبنا لا يسمح لنا في أمر النصارى بهذا.

وأما إن كان في بلاد عز سلطانة مماليك نصارى: روم وغيرهم من أجناس النصارى، متمسكون بدين النصارى، ويحصل لقوم منهم العتق، فليكن للذين معهم عتائق مباح ومطلق من عز سلطانه، أن يفدوا في البحر إلى بلاد مملكتي. وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عز سلطانه أن يبيع مماوكا نصرانيا هذه صورته لأحد من رسل مملكتي، أو لتجار وأناس بلاد مملكتي، أن لا يجد في هذا تعويقا، بل يشتروا المذكور ويفدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق. وأيضا إن أراد هذا السلطان العظيم النسيب، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجرا، وأرادت مملكتي أن ترسل إلى بلاد عز سلطانه بضائع متجرا، فليكن هذا: وهو إن أراد عز سلطانه أن تكون بضائع متاجرة في بلاد ملكي منجاة من القيام بكل الحقوق، فلتكن أيضا بضائع متاجر مملكتي في بلاد عز سلطانه منجاة مثل ذلك من كل الحقوق، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة (يقوم) بمثل ذلك. وأيضا أن يطلق عز سلطانه لملكي أن يرسل أناسا من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانه، فيشترون لي خيلا جياداً ويحملونها إلى بلاد ملكي. وكذلك إن أراد عز سلطانه شيئا من خيرات بلاد ملكي، فمملكتي أيضا تطلق لعز سلطانه أن يرسل أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عز سلطانه.

ولما كان في البحر كرساليه من بلاد غريبة، وقد يتفق في بعض الأوقات

أن يعملوا خسارة في بلاد ملكي ، وكذلك يجدون هؤلاء الكرسالية قوما من بلاد عز سلطانه فيعملون لهم خسارة ، ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الآفـــاق في تخوم بلاد ملكي . لأجل هذا صار : إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانه بمتجر يمسكون من أهل البلاد عز سلطانه ويغرمون . ولهذا فليصر مرسوم من عز سلطانه في كل بلاده أن أحدا من أهل بلاد مملكتي لا يغرم بهذا السبب ولا يمسك ، وإن عرض أن يقول أحد من أهل بلاد عز سلطانه : إنه غرم أو ظلم من أهل بلاد ملكي فليعرف ملكي بذلك . وإن كان الذي وضع الغرامة من أهل بلاد ملكي ، فملكي يأمر ، وتعاد تلك الخسارة إلى بلاد عز سلطانه . وكذلك إن قال أحد من أهل بلاد مملكتي : إنه ظلم أو غرم من أحد من بلاد عز سلطانه ، يأمر عز سلطانه ، وتعاد الغرامة إلى بلاد ملكي ، وأيضا إذ قد أزمعت المحبة أن نصير بهذه الصورة ، وتكون الصداقة بين مملكتي وعز سلطانه خالصة ، حتى إنه أرسل يقول للملكي على معونة ونجدة في البحر لمصرة العدو المشترك (٥٤) ، فمملكتي تفوض هذا الأمر إلى اختيار عز سلطانه ، أن يرتب في نسخة اليمين مع بقية الفصول المعينة فيه ، وتأتي الصورة كيف تعين وتنجد مملكتي في البحر. وإن كان لا يريد نجدة ومعونة مملكتي ، فمملكتي تسمح بهذا الفصل أن لا يضعه عز سلطانه في نسخة يمينه ، وهذه اليمين منا بحفظ ملكي لعز سلطانه ثابتةً غير متزعزعة إن كان هذا السلطان العظيم يحلف لنا يمينا بمثلها ، وأنه يحفظ المحبة لمملكتنا ، ثابتة غير متزعزعة ، والسلام » (٥٥) .

أما نسخة الاتفاق التي وردت من الأبواب السلطانية عن الملك المنصور قلاوون عن نظير الهدنة المنعقدة فهي تجري كالآتي :

« أقول وأنا فلان : إنه لما رغب حضرة الملك الجليل ، كرميخائيل ،

---

(٥٤) « العدو المشترك » هنا هو شارلس من آنجو ملك صقلية الفرنسي .

(٥٥) صبح الأعشى ، ٥ ، ٢٩ ص ص ٧٥ — ٧٨ .

الدوقس ، الأنجالوس ، الكمينيوس ، البالاولوغس ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ،أكبر ملوك المسيحية ،أبقاه الله – أن يكون بين مملكتهوبين عز سلطاني ، محبة وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال السنين والأعوام ، وأكد ذلك بيمين حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة ستة آلاف وسبعمائة وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ، بحضور رسول عز سلطان ، الأمير ناصر الدين ابن الجزري ، والبطرك الجليل انباسيوس بطرك الاسكندرية ، وحضر رسولاه فلان وفلان إلى عز سلطاني بنسخة اليمين ، ملتمسين أن يتوسط هذا الأمر أيضا يمين واتفاق من عز سلطاني ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطاني . وتكون ثابتة مستمرة على الدوام والاستمرار .

فعز سلطاني من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان العظيم ، سنة ثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؛ يحلف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسر والعلانية وما تخفي الصدور ، وبالقرآن العظيم ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل عليه ، وهو النبي الكريم ، محمد صلى الله عليه وسلم – على استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقية ، للملك الجليل كر ميخائيل ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ، ولولد مملكته الحبيب الكمينيوس الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوغس ، الملك ايراندروبنفوس ، ولوارثي مملكة ملكه . ولا يحرك عز سلطاني أبدا على مملكته حربا ، ولا على بلاده ، ولا على قلاعه ، ولا على عساكره : في بر ولا بحر . ولا يحرك عز سلطاني أحداً آخر على حربه ، بحيث إن الملك الجليل كرميخائيل يحفظ مثل ذلك لعز سلطاني ، ولملكي ، ولبلادي ، ولقلاعي ، ولعساكري ، ولولدي السلطان الملك الصالح علاء الدين « علي » ولوارثي ملكي من أولادي ؛ ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقية ، ولا يحرك ملكه على عز سلطاني حربا قط ولا على بلادي ، ولا على قلاعي ، ولا على عساكري ، ولا على مملكتي ، ولا يحرك أحدا آخر على حرب مملكة عز

سلطاني في البر ولا في البحر ، ولا يساعد أحداً من أضداد عز سلطاني ، ولا أعدائي من سائر الأديان والأجناس ، ولا يوافقه على ذلك ، ولا يفسح لهم في العبور إلى مملكة عز سلطاني لمضرة شيء فيها بجهده وطاقته .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطاني إلى بر بركة وأولاده وبلادهم وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً : لهم أن يعبروا في بلاد مملكة الملك الجليل ، كر ميخائيل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق : أرسلوا في بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطاني ، آمنين مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل من معهم من مماليك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة الملك الجليل كرميخائيل إلى بلاد عز سلطاني جور ولا ظلم ، ويترددون آمنين مطمئنين يعملون متاجرهم ، ولهم الرعاية في الصدور والورود ، والمقام والسفر : بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطاني في بلاد مملكة الجليل كرميخائيل مثل ذلك ، ويكونون مرعيين ، ولا يجدون من أحد في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل جوراً ولا ظلماً . ومن عليه حق واجب في الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به من غير حيف ولا ظلـــــم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بمماليك وجوار تمكنهم مملكة الملك الجليل كرميخائيل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطاني ولا تمنعهم . وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين في البحر ، ونسبت الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، يسير عز سلطاني إليه في طلبهم ، ولا يتعرض أحد من نواب مملكة عز سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم ، إلا أن يتحقق أنهم آخذون ، أو تظهر عين المال معهم ، على ما تضمنته نسخة يمين الملك الجليل كرميخائيل ، ولمملكة الملك الجليل كرميخائيل من بلاد عز سلطاني مثل ذلك .

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين : من مملكة عز سلطاني ، ومن مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، يكونون آمنين مطمئنين في سفرهم ومقامهم : براً وبحراً ، وتكون رعية بلاد عز ساطاني ، ورعية بلاد الملك الجليل كرميخائيل ، في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمنين مطمئنين ، صادرين واردين ، محترمين مرعيين .

وهذه اليمين لا تزال محفوظة ملحوظة ، مستمرة مستقرة ، على الدوام والاستمرار » (٥٦) .

وهكذا فإن ميخائيل الثامن پاليولوغوس قد نجح في ذكاء فذ في أن يعالج المواقف المعقدة في الشرق الأدنى مع جيرانه من سلاجقة ومغول ومماليك . كذلك وفق في التخطيط ضد عدوه الألد شارلس من آنجو صاحب صقلية، بضرب حلف مع السلطان قلاوون لمحاصرة تحركاته بأسطوله في شرقي البحر الأبيض المتوسط .

---

(٥٦) صبح الأعشى ، ٥ ، ٢٩ ص ص ٧٥ - ٧٨ .

الفصل الرابع

البيزنطيون وفرنجة اليونان في عصر پاليولوغوس

يقال إن هنري شقيق وخليفة بلدوين في حكم القسطنطينية (الذي حكم من ١٢٠٥ إلى ١٢١٦) قد توفي أسيراً في أيدي واحد من نبلاء البلاط الأقوياء هو كونت بياندرات ، الذي كان على علاقة طيبة بالبيزنطيين . وقد خلف هنري على عرش الأمبراطورية الصليبية في القسطنطينية زوج أخته يولاندة المدعو بطرس من كورتيناي. تلقى بطرس تاج الأمبراطورية من أيدي البابا هونوريوس الثاني في كنيسة سان لورنزو خارج أسوار روما . و بعد التتويج عبر بطرس إلى ميناء دورازو بقصد مواصلة الرحلة عبر الطريق الصليبي القديم « ڤيا اجناتيا » (Via Egnatia) المؤدي إلى سالونكا وبوابات المشرق .

غير أن كتائب حكومة ابيروس البيزنطية انقضت على بطرس ورجاله على من الباسان (Elbassan) ، وألقت القبض على الأمبراطور اللاتيني الجديد وعلى القاصد البابوي الذي كان في صحبته . ومع أن السلطات في ابيروس قد أطلقت سراح المندوب البابوي بعد قليل ، إلا أنها احتجزت بطرس في السجن حتى مات » ، أغلب الظن بضربة سيف (٥٥) .

(57) George Akropolita, (Bonn ed.), p. 28.

بعد موت بطرس من كورتيناي صارت مقاليد الأمور في كل من القسطنطينية وسالونكا ، التي توفي صاحبها بونيفاس ماركيز مونت فرات ، في أيدي سيدتين فرنجيتين هما يولاندة ومارجريت بالترتيب . وإذا كان هلاك بطرس قد جاء على يد تيودور انجيلوس صاحب ايبروس ، فإن سقوط سالونكا قد تم أيضا على يد نفس الشخص ، وذلك في سنة ١٢٢٢ م .

كان لسقوط سالونكا في أيدي البيزنطيين صدمة كبرى في المغرب اللاتيني ، فبادر البابا هونوريوس الثاني بإصدار أوامره إلى قلاع سالونا وبودونتزا ، في شمالي بلاد اليونان – بأن يعمل أصحابها من فرسان الفرنجة على الصمود ضد ضربات البيزنطيين . ثم طلب البابا من فرنجة آثينا وآخايا (المورة) بأن يشنوا الحرب ضد ايبروس البيزنطية لاسترجاع سالونكا من أيديهم . وفي نفس الوقت راح البابا يخطط لمشروع حملة صليبية جديدة هدفها الأول استرداد سالونكا من أيدي البيزنطيين ، الذين فصلوا الآن بين فرنجة بلاد اليونان في الجنوب وبين عاصمتهم الصليبية في القسطنطينية .

بعد أن مكن تيودور انجيلوس لنفسه في ايبروس وسالونكا ، شعر بالثقة الزائدة عن الحد ، فقرر الدخول في مغامرة حمقاء ضد يوحنا آسن الثاني خان البلغار ، رغم أن معاهدة سلام كانت قد أبرمت بين الرجلين منذ وقت قريب . ولذا فإن الخان هجم بجيشه ، وهو يحمل على علمه وثيقة القسم الذي كان تيودور انجيلوس قد أداه له ، على خصمه وأوقع به هزيمة نكراء عند بلدة كلوكوتنتزا على نهر مارتزا في سنة ١٢٣٠ م . ووقع تيودور انجليوس أسيراً في أيدي الخان البلغاري ، الذي عامل أسيره أول الأمر بالرفق ، ولكنه ما لبث أن أمر بسمل عينيه بعد أن تبين له أنه يتآمر ضده في الخفاء . في أثناء ذلك اضطلع مانويل انجيلوس بحكم ما تبقى من أراضي أخيه الأسير وأعلن نفسه امبراطوراً على ابيروس ، معتمداً على أنه كان زوجا لإحدى بنات الخان .

غير أن الخان البلغاري قد افتتن بجمال ابنة أسيره ، فلما أن طلب يدها

وافقت مقابل أن يطلق سراح والدها من سجنه . وما أن خرج تيودور انجيلوس من السجن — وهو ضرير — حتى تسلل متنكراً إلى سالونكا وجمع من حوله نفراً من قدامى الأصدقاء ، ونجح في إزاحة أخيه مانويل عن عرش سالونكا . وراح يمارس الحكم بمعونة ابنه يوحنا .

فرَّ مانويل من وجه أخيه الضرير لاجئاً إلى بلاط نيقيا ، فرحب به سيدها ڤاتاتزيس . ثم تحرك ڤاتاتزيس وضم سالونكا إلى حكمه سنة ١٢٤٦ م دون أن يصادف مقاومة تذكر ، كما سبق أن بينا في فصل سابق .

غير أن مغامراً من بيت انجيلوس اسمه ميخائيل الثاني نجح في الاستيلاء على ابيروس وائيتوليا وكورفو ، وتلقب بلقب « سيد هللاس » . ولكي يحافظ « سيد هللاس » الجديد على أراضيه سعى إلى كسب رضا سيد نيقيا القوي . وقد ساعده على تحقيق ذلك الهدف زوجه تيودورة . وتيودورة من أصل فرنجي من منطقة پروڤانس الفرنسية . وتروي الروايات أنها كانت زوجة وفية لميخائيل الثاني رغم معاملته الفظة لها : فلقد طردها ذات مرة من قصره ليستقبل فيه فاتنة يونانية اسمها جانجرينيه . ولما استنكر نبلاء القصر فعله هذا ، ردَّ تيودورة إلى قصرها ، وكفر عن ذنبه ببناء دير « المخلص » في بلدة جالاكسيدس على خليج كورنثة إرضاء لها . قصدت تيودورة بنفسها إلى بلاط نيقيا ، حيث قوبلت باحترام وترحيب ، وهناك اتفقت على زواج ابنها نقفور من حفيدة ڤاتاتزيس ؛ من أجل إقرار الصلح بين زوجها وسيد نيقيا . ولكن جهود تيودورة المخلصة قد تبددت أمام أطماع زوجها ، الذي استأنف نشاطه ضد صاحب نيقيا سنة ١٢٥١ م .

هجم ڤاتاتزيس على البلقان لتأديب ميخائيل الثاني ، الذي خشي مواجهة خصمه ، فطلب الصلح من ڤاتانزيس .

وأرسل ڤاتاتزيس سفيره جورج أكروبوليتا (المؤرخ) لعقد الصلح مع ميخائيل الثاني ، وعاد السفير المؤرخ بعد توقيع الصلح يجر في موكبه تيودور

المغامر العجوز الضرير ليلقي به أسيراً في سجون نيقيا . ولكن ميخائيل الثاني انتهز فرصة وفاة ڤاتاتزيس سنة ١٢٥٤ م وحرض الألبان على مهاجمة قلعة بريلاب التي كانت تحت اشراف جورج اكروپوليتا ، ولما سقطت القلعة اقتيد اكروپوليتا أسيراً إلى سجن أرته ، وهناك انكب الرجل على كتابة تاريخ تلك الفترة المضطربة . ولم يكن وريثا ڤاتاتزيس في نيقيا في موقف يمكنهما من تأديب ميخائيل الثاني ؛ فقد كان تيودور الثاني يعاني من مرض عضال ، وبعد وفاته ترك على العرش طفلا قاصراً هو يوحنا الرابع . وظن ميخائيل الثاني أن القدر قد ابتسم له ، وبأنه قاب قوسين أو أدنى من الجلوس على عرش القسطنطينية . الذي كان يهتز تحت الصليبي الجالس عليه . ولكي يحقق هذه الأمنية عمل على توثيق علاقاته بجيرانه من أمراء الفرنجة ؛ فزوج وليم فلهاردوان أمير اخايا من ابنته آنا ، كما زوج ابنة أخرى هي هيلين من مانفريد ملك صقلية . وتلقى مانفريد مهراً من زوجه على شكل أرض في ابيروس وكورفو ، ووكل أمر الإشراف على هذه الأرض إلى فصل له هو الأدميرال فيليبو شينار دو ، وهو فرنجي من قبرص .

ولما أن وصل ميخائيل الثامن پاليولوغوس إلى عرش نيقيا ، وصياً على الطفل القاصر يوحنا الرابع ثم شريكا له في الحكم ، شعر ميخائيل الثاني أنه سيواجه خصماً عنيداً . فبادر إلى الاستنجاد بمانفريد ووليم فلهاردوان ، زوجي ابنتيه ، للتصدي للحملة التي أرسلها پاليولوغوس ضدة بقيادة أخيه يوحنا .

أرسل مانفريد إلى حميه أربعمائة من الفرسان الألمان ، وأقبل وليم فلهاردوان صاحب آخايا على رأس فرسانه الفرنجة لمساعدة ميخائيل الثاني . وكان من بين رجال وليم نفر من الفرسان المرموقين ، وعلى رأسهم الكونت رتشارد صاحب كيفالونيا ، وتوماس الثاني صاحب سالونا ، وابورتينو صاحب بودونتزا . وكان جيش نيقيا يضم فرقا مرتزقة ، من بينها ثلاثمائة من الفرسان الألمان بقيادة دوق كارنثيا ، وألف وخمسمائة من رماة الرمح الهنغار ، وستمائة من

مقاتلي صربيا ، وفرقة من البلغار ، وفرقة أخرى من مقاتلي الأناضول الذين تمرسوا على مقاتلة الترك إلى جانب خمسمائة من المرتزقة الترك ، وألفين من خيالة الكومان .

وسرعان ما دب الخلاف بين ميخائيل الثاني وحلفائه الفرنجة ، وساعد على تعميق هوة الخلاف موقف يوحنا الابن غير الشرعي لميخائيل الثاني ، الذي احتج على سلوك الفرنجة لأن فرسانهم قد « داعبوا » زوجه الفاتنة . وقوبل احتجاجه بأن تغمز عليه بعضهم بنسبه غير الشرعي . ولذا فقد انضم يوحنا إلى معسكر نيقيا نكاية في الفرنجة . ثم هرب والده ميخائيل الثاني من ميدان القتال ، تاركا الفرنجة وحدهم ليتلقوا ضربات جيش نيقيا . ودارت معركة شرسة بين الطرفين عند بلدة بيلاجونيا في غربي مقدونيا (سنة ١٢٥٩ م) ، سقط فيها العديد من فرسان الفرنجة ، ووقع عدد آخر منهم في الأسر . وكان على رأس الأسرى وليم فلهاردوان ، الذي سقط من على ظهر جواده وحاول أن يخفي وجهه بكومة من القش ، ولكن أمره قد اكتشف ، واقتيد مع بقية الأسرى ومن بينهم جيوفري دى برويير « زهرة فرسان آخايا » .

أرسل يوحنا پاليولوغوس الأسرى الفرنجة إلى معسكر أخيه ميخائيل الثامن في لامبساكوس . ثم تابع يوحنا انتصاراته فاستولى على جوانينا وأرته ، وحرر المؤرخ جورج اكروپوليتا من سجنه في الأخيرة . بعد هذا تقدم يوحنا پاليولوغوس ومعه سميه يوحنا (٥٨) ابن ميخائيل الثاني لمهاجمة تساليا ونيوباتراس وطيبة . وعند الأخيرة هرب يوحنا إلى معسكر والده في جزر ليوكاس وكيفالونيا . ثم اندلعت الثورة في بلاد اليونان — بتحريض من ميخائيل الثاني وأبناءه — ضد جيوش نيقيا، واضطر يوحنا پاليولوغوس إلى التقهقر قبل فوات الأوان .

---

(٥٨) يلاحظ أن سيد ايپروس اسمه ميخائيل (الثاني) ، وسيد نيقيا اسمه ميخائيل (الثامن) ، وان ابن ميخائيل الثاني اسمه يوحنا ، وشقيق ميخائيل الثامن اسمه يوحنا أيضاً .

وبعد عام واحد من كارثة بيلاجونيا ، تلقى ميخائيل الثاني فرقة من الفرسان من زوج ابنته مانفريد ، فسير ابنه الأكبر نقفور على رأسهم لمقاتلة جيش نيقيا الذي كان بقيادة الكسيوس ستراتيجوبيولوس . وحلت الهزيمة بجيش نيقيا ، ووقع الكسيوس في الأسر ، ثم وقعت هدنة بين الطرفين وأطلق سراح الكسيوس سنة ١٢٦٠ م .

ومن المفارقات المذهلة في التاريخ أن الكسيوس ستراتيجوبيولوس ، ذاك الأسير المنهزم على يد فرقة هزيلة من مرتزقة الغرب الألمان ، هو ذاته الذي تم على يديه في العام التالي لإطلاق سراحه من الأسر أكبر عمل بطولي في تاريخ بيزنطة ؛ ألا وهو استرداد القسطنطينية من أيدي الصليبيين . والأشد غرابة في الأمر أن هذا البطل الأسطوري قد شاءت له الأقدار أن يقع مرة ثانية أسيراً في أيدي حكام ابيروس . ولقد أذهلت تلك المفارقات « المضحكة المبكية » المعاصرين من المؤرخين البيزنطيين ، فراحوا يقارنون هذا « البطل الأسير » بسيرة قورش الفارسي ، وهانيبال القرطاجي ، وپومبي الروماني . ولما أن وقع « البطل » للمرة الثانية في أيدي حكام ابيروس ، أرسلوا به إلى بلاط مانفريد ملك صقلية ، وظل حبيساً هنالك حتى استرده ميخائيل الثامن پاليولوغوس معززاً مكرماً ، مقابل شقيقة مانفريد نفسها ألا وهي الأمبراطورة الصليبية آنا ، التي كانت قد وقعت أسيرة في أيدي پاليولوغوس .

بعد ثلاثة أعوام من موقعة بيلاجونيا ، زحف بطلها يوحنا پاليولوغوس وهاجم جيش حكام ابيروس وأوقع به هزائم متلاحقة . واضطر ميخائيل الثاني إلى أن يوفد زوجه « الطيبة » تيودورة مرة أخرى لتتشفع له في بلاط پاليولوغوس . ونجحت تيودرة في إقرار الصلح بين الطرفين ، وأودعت ابنها الأصغر يوحنا رهينة في بلاط پاليولوغوس ، ثم زوجت ابنها الأكبر نقفور من ابنة أخت لپاليولوغوس .

لعل أهم نتيجة لذلك الصراع الذي دار بين ميخائيل الثامن پاليولوغوس

وبين حكام ابيروس أن أصيبت إمارة آخايا الفرنجية بالخراب . وقتل خيرة فرسانها في ميادين القتال . وما أن اقتيد الأسرى الفرنجة إلى بلاط پاليولوغوس ، عرض عليهم المال الطائل على أن يرحلوا عن بلاد اليونان ويشتروا إقطاعات لهم في فرنسا بهذا المال . ولكن وليم فلهاردوان رد بأن أراضي المورة ليست ملكا له وحده ، وإنما هي أرض « أقرانه » الفرسان من السادة الإقطاعيين ، وهو على هذا لا يملك حق التصرف في حقوق أقرانه أو أفصاله . وغضب الأمبراطور من إجابة أسيره ، فأمر بإلقائه ورفاقه في السجن لمدة ثلاثة أعوام .

بعد أن سقطت القسطنطينية في أيدي ميخائيل الثامن پاليولوغوس ، هرب امبراطورها الصليبي بلدوين الثاني إلى نجروپونت ، ومنها إلى طيبة ثم إلى آثينا . وفي آثينا كان جي دوق آثينا ، الذي اضطلع بالوصاية على آخايا أيضا ، في انتظاره . ورحب الدوق بالأمبراطور الطريد في قلعة كادمية (Kadmeia) عند الأكروبول العتيد . ثم توافدت دوقة ناكسوس ورتل من السيدات الفرنجيات لتقديم الهدايا للأمبراطور . ولم يكن الأمبراطور يملك ما يرد به جمائل نبيلات ونبالة الفرنجة اللهم إلا بعض المخلفات الأثرية الدينية التي حملها معه عند فراره من القسطنطينية ، ولما كان مدينا لأوتون دى كيكون صاحب خاريستوس بمبلغ خمسة آلاف هيبربري (Hyperperi) ، فقد سدد دينه بذراع القديس يوحنا المعمدان . وقد أهدى أوتون ذاك الأثر إلى دير سيتوه في برغنديا . وهكذا فإنه « على صخرة آثينا المهيبة أسدل الستار على الفصل الأخير من الدراما المجزوءة للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية »[٥٩] . وبعد هذا المشهد التاريخي أبحر بلدوين من ميناء بيريه إلى مونمڤاسيا ، ومنها إلى غرب أوربا لكي يبحث عن صليبية جديدة ترجع إليه ملكه الضائع !

بعد أن استرد ميخائيل الثامن القسطنطينية تسمى « بقسطنطين الجديد » ، وعقد العزم على ضم بلاد المورة إلى حظيرة الأمبراطورية المستردة لتكتمل لها

(59) Miller, W., Latins in the Levant (1204 - 1566), p. 115.

وحدتها . وكانت الأعوام الثلاثة التي قضاها وليم فلهاردوان صاحب المورة في سجون پاليولوغوس قد كسرت من حدة كبريائه ؛ خاصة وأن بعض رفاقه هد هلكوا في السجن ، ولذا فقد توصل معه ميخائيل الثامن إلى حل وسط . ووافق وليم على أن يرد لميخائيل الثامن فلاع مونمڤاسيا ومالينا ومسترا ، ولكنه رفض طلب الامبراطور – في استرداد أرجوس وناپوليا ، محتجاً بأنهما تخصان دوق آثينا وحده . وبعد الاتفاق أعلن وليم تبعيته لميخائيل الثامن وأقسم له يمين الولاء والطاعة على أن يحكم ما تبقى من أراضي آخايا فصلاً للأمبراطور ، وأنعم عليه الأمبراطور بلقب « السنكال الأكبر » . كما أطلق الأمبراطور سراح عدد من أتباع وليم ؛ من بينهم البارون جيوفري دى برويير ، الذي كان مقربا لقلب الأمبراطور [٦٠] .

عندما وصلت رسالة وليم فلهاردوان إلى جي دوق آثينا بما تضمنه الاتفاق مع الامبراطور ، شعر بأنه لو سلم القلاع الثلاث لمندوبي ميخائيل الثامن فإنه يعرض المصالح الفرنجية في بلاد اليونان لخطر داهم . والمعروف أنه كانت بين جي ووليم ضغائن قديمة ، ولكن جي – رغم هذا – عقد المجلس الإقطاعي الأعلى للإمارة في بلدة نيكلي (Nikli) وهي نفس البلدة التي كان قد مثل فيها صاغراً ذات يوم أمام وليم فلهاردوان للمحاكمة الإقطاعية . غير أن أعضاء المجلس الإقطاعي هذه المرة كن في الغالبية من السيدات ، لأن الرجال قد هلكوا في حقول بيلاجونيا أو اقتيدوا إلى الأسر . على أن المجلس كان يضم رجلين قويين هما ليوناردو دى فيرولي مستشار ولاية آخايا ، وبطرس من فوه (Vaux) من وجهاء القوم فيها . وكان طبيعيا ، والمجلس جله من الجنس الرقيق ، أن تغلب العاطفة على صوت العقل ، رغم أن جي خطب فيهن وهو يجهش بالبكاء بأنه من الأخير للفرنجة أن يموت واحد منهم على أن يهلك الجميع ويضيع على فرنجة المورة عناء الآباء . كما عرض جي أن يضع نفسه في السجن بدلاً من

(60) Pachymeres (Bonn ed.), i, 88.

وليم ، إن كانت القضية هي مجرد إطلاق سراح الأمير . ولكن العضوات ألمحن إلى جي أن القلاع التي هي موضع الجدل لم تكن ملكا لجي بل هي لوليم ، الذي الذي من حقه وحده أن يتصرف فيها وفق إرادته . واضطر جي إلى الامتثال لرأي « الرفيقات » ، وسلم القلاع الثلاث للسلطات البيزنطية . وسافرت نبيلتان فرنجبتان هما مارجريت ابنة مارشال آخايا وإحدى صويحباتها الي القسطنطينية رهينتين لدى پاليولوغوس .

أطلق سراح وليم فلهاردوان فسافر إلى بخروبونت ، حيث كان جي دوق آثينا في استقباله ، واصطحبه إلى طيبة . وفي طيبة عقد الصلح بين جي ووليم وأيضا مع جمهورية البندقية لانهاء الضغائن القديمة بين الأطراف جميعاً . ولعل هذا التقارب بين الفرنجة والبندقية ينير لنا الطريق لتفهم طبيعة المشاعر التي باتت جمهورية سان مارك تضمرها نحو ميخائيل الثامن . ذلك أن ميخائيل الثامن كان قد وقع معاهدة تجارية مع جمهورية جنوة ، نقل بمقتضاها كل الامتيازات التجارية التي كانت تنعم بها البندقية إلى غريمتها جنوة ، وكان ميخائيل الثامن يتعمد عقاب البنادقة بسبب دورهم الضالع في تحطيم الدولة البيزنطية سنة ١٢٠٤ م . ولكي يزيد الأمبراطور من إشعال نار الندم في قلوب البنادقة منح الجنوية حرية الحركة التجارية في كل أرجاء الأمبراطورية ، إلى جانب جزيرتي كريت ونجروبونت . كذلك سمح الأمبراطور للجنوية بإقامة المستعمرات في آنايا ولسبوس وخيوس وأزمير ، ووهبهم فوق كل هذا حيا كاملاً للجالية الجنوبية في العاصمة هو حي غلاطة . وأمر ميخائيل الثامن باغلاق البحر الأسود في وجه سفن البندقية . ومنذ توقيع هذه المعاهدة المعروفة بمعاهدة نمفايون ، تصاعد مركز جنوة التجاري بشكل ملموس في الشرق الأدنى ، على حساب جمهورية سان مارك .

عين ميخائيل الثامن حاكما بلقب « كيفالي » على القلاع التي استردتها بيزنطة في المورة ، ثم استبدله بماريشال بلقب « بروتوستراتور بروتو — الاغاتور »

وجعل مقره في بلدة مسترا [61] . وكان لا مفر من نشوب صراع مرير بين ذلك النائب الأمبراطوري وبين الفرنجة في المورة ، فقد كانوا يحيطون بمقر قيادته من كل جانب . واستعان الطرفان بالجند المرتزقة من كل جنس وبأي ثمن . وكانت نتيجة هذا الصراع أن حل الخراب ببلاد اليونان ، فعندما عجزت خزائن الأطراف المتصارعة عن دفع الرواتب للمرتزقة من الجند ، لجأ هؤلاء إلى النهب والسلب للحصول على المال ، فخربت بيوتات الأهلين ، ويرجع الكثير من المؤرخين سبب تغلب الأتراك فيما بعد على بلاد اليونان إلى تلك الصراعات المستمرة بين البيزنطيين والفرنجة ، والتي قصمت ظهور الناس وامتصت دماءهم حتى العظـــام .

عند عودة وليم فلهاردوان إلى المورة ، التف الفرسان الفرنجة من حوله ، ثم قام برحلة استطلاعية للبلاد ، بينما كان نواب باليولوغوس يراقبون تحركاته من أبراجهم في مسترا . ويبدو أن وليم كان عازماً على الانتقام من باليولوغوس ، رغم أنه كان قد أقسم يميناً على « المعمودية » بأنه لن يرفع سلاحاً ضـــد الأمبراطور بعد إطلاق سراحه . ولكن « ضمير » وليم قد وجد في شخص البابا أوربان الرابع صكاً للغفران الأكيد وللتحلل من القسم الذي كان قد أداه لباليولوغوس. كان البابا أوربان الرابع فرنسياً متعصباً لفرنجيته ، وكان شديد الإيمان والأمل « بفرنسا الجديدة » التي أقامها بنو جلدته في بلاد المورة . ولذا فإنه بادر بإرسال المال والمعونة لوليم فلهاردوان ، كما أنه أكد لوليم أنه في حلٍ من اليمين التي كان قد أداها للأمبراطور ؛ لأن هذا قد تمّ وهو سجين لا يملك حرية القرار . كما ألمح له البابا بأنه في مقدور الفرنجة أن يتذرعوا دائماً بأن البيزنطيين هم الذين بدأوا بالعدوان على فرنجة المورة .

لما علم ميخائيل الثامن بنوايا وليم فلهاردوان أرسل جيشاً بقيادة أخيـــه قسطنطين ، وفي نفس الوقت أبحر الأسطول البيزنطي بقيادة فيلانتروبينوس إلى

(61) « Bulletin de Corespondance hellenique », xxiii, 115, 123.

بحر إيجة لمحاصرة سواحل المورة . وكانت غالبية جند الأسطول من جماعات « الجازمولوي » (Gasmouloi) . وهم نتاج الزيجات المختلطة بين فرسان الفرنجة واليونانيات ، وكان هؤلاء الجند على درجة كبيرة من المهارة « لأنهم جمعوا في دمائهم بين مكر الأغارقة وبأس اللاتين » (٦٢) . كذلك ساهمت جنوة بنقل بعض الفرق البيزنطية إلى مونمفاسيا ، وشاركت في الهجوم البحري على جزر بحر إيجه .

هب فرسان الفرنجة في بلاد اليونان لمساعدة وليم فلهاردوان ضد الحملة البيزنطية ، ولم يتخل عن المشاركة في القتال إلا أفضلهم وهو جيوفري دى برويير ، ولعل العلاقة الوطيدة التي قامت بينه وبين ميخائيل الثامن أثناء أسره في القسطنطينية هي التي أملت عليه هذا الموقف . ولم يعجز كتاب الفرنجة في التماس عذر آخر لجيوفري فقالوا انه عند اشتعال الحرب كان يمر بقصة غرام مع واحدة من بنات زمانها ، والتي جرته للإبحار إلى أبوليا بحجة أنه « مشتاق للحج إلى أعتاب سان نيكولا في باري ولرحاب سان ميشيل على جبل جرجانو » .

زحف البيزنطيون نحو اندرافيدا ، عاصمة الفرنجة في المورة . وفي طريقهم أشعلوا النيران في دير فرنجي هو بيت « سيدتنا من ايزوفا » . وعند بلدة برنتيزا تصدت لهم فرقة من فرسان الفرنجة قوامها ٣١٢ رجلاً بقيادة جان دى كاتافاس ، وهو زوج السيدة التي كانت قد هربت مع عشيقها جيوفري إلى أبوليا . وكان كاتافاس محاربا شديد البأس ، رغم أنه كان فريسة للآلام الروماتزمية ، ويروى أنه شد علم آخايا على يده ، ووعد رجاله بنصر وشهرة » سوف تدوم ذكراها دوام سيرة الفلك على جبال آرارات » . وضرب كاتافاش المثل لرجاله ، فمرق كالسهم على صهوة جواده ، وقد التف بثوب ناصع البياض ، نحو خيمة القائد البيزنطي قسطنطين باليولوغوس .

(62) Paparregopoulos, Istoria to Ellenikon Ethnous, (4th ed. by P. Kalolidos, V, 130).

وانتشر بين البيزنطيين قول بأن سان جورج يقود جيش الفرنجة نحو النصر ، انتقاما لتلك المهانة التي حلت بدير عذراء ايزوفا . وقد هرب قسطنطين من وجه كاثافاس ، وتفرق الجند البيزنطيون في الغابات المجاورة لأرض المعركة .

واشتبك الطرفان مرة أخرى سنة ١٢٦٣ عند بلدة ميز سسكلين ، وحلت الهزيمة بالبيزنطيين . ثم دب الخلاف بين القائد البيزنطي وفرقة من المرتزقة الترك بسبب تأخر رواتبهم لمدة ستة شهور كاملة . وهنا انتقل الترك من المعسكر البيزنطي وانضموا تحت لواء الفرنجة ، وعلى ضفاف نهر إلس (Elis) تم أول حلف بين الفرنجة والترك ضد البيزنطيين .

وهكذا فإن الفرنجة الذين اغتصبوا بلاد اليونان من البيزنطيين ، لم يجدوا غضاضة في عقد حلف مع ألد أعداء بيزنطة بهدف تحطيم كيان الدولة المستردة . وقد عرف الترك منذ تلك اللحظة مكامن الضعف في بلاد اليونان ؛ الأمر الذي سهل لهم فيما بعد السيطرة عليها .

هجم الفرنجة وحلفاؤهم الترك على البيزنطيين ، وأنزلوا بهم هزيمة قاسية في ممر ماكري بلاجي ، ووقع القواد البيزنطيون في الأسر . وبعد هذا النصر زحف وليم فلهاردوان على بلدة لاكيدمونيا ، ففر منها أهلها اليونانيون إلى بلدة مسترا . وقد حيا وليم فلهاردوان هذه الانتصارات على البيزنطيين بالسماح لبعض الفرسان الترك بالزواج من بعض النبيلات الفرنجيات ، توطيداً للعلاقة بين الحليفين . وتجمع المصادر المعاصرة أن الحروب التي جرها الفرنجة على تلك البلاد اليونانية قد أفقرتها من الحرث والنسل ، وهلك غالبية شباب البلاد ، ونحن نعلم من مؤرخ معاصر أن سيدة من أهالي تلك المناطق فقدت أزواجا سبعة الواحد بعد الآخر جميعا في تلك الحروب (٦٣) .

كان وليم فلهاردوان خصماً عنيداً لميخائيل الثامن ، خاصة بعد أن ألقت

(63) Sanudo, Diarii, apud Hopf, Chroniques greco-romanes, 116-118, 135. (This historian wrote his chronicle in A.D. 1328, while living in Constantinople.)

البابوية بثقلها وراء فرنجة المورة ضد الدولة البيزنطية . ولذا فإن ميخائيل الثامن قد آثر فتح باب المفاوضات مع عدوه الفرنجي ، واقترح عليه أن يتزوج اندرونيكوس الثاني ولي العهد البيزنطي من ايزابلا كبرى بنات ولـيم ، على أن يكون لاندروينكوس الحق في وراثة الحكم في آخايا . وكان هذا المشروع – لو أنه قد تم – كفيلاً بأن يؤلف بين اليونانيين والفرنجة وأن يوقف تلك الحروب الدامية بين الطرفين ، وكان من الممكن في تلك الحالة أن تقوى المورة على التصدي للغزو التركي فيما بعد .

ولكن فرسان الفرنجة رفضوا ذلك المشروع ، ولم يقبلوا أن يكون سيدهم المقبل بيزنطياً « مهرطقاً مخنثاً » .

في تلك الآونة من الصراع بين بيزنطة وفرنجة بلاد اليونان ظهر على مسرح الأحداث مغامر جديد هو شارلس من آنجو شقيق لويس التاسع ملك فرنسا . وكان البابا الفرنسي أوربان الرابع قد استعدى شارلس من آنجو على مانفريد ابن فردريك الثاني هوهنشتاوفن ، على أن يؤول حكم صقلية بعد القضاء على مانفريد إلى شارلس من آنجو. وهجم شارلس على جيش مانفريد عند بنفنتو وانتصر عليه انتصارا حاسماً . وبذلك آلت أراضي الهوهنشتاوفن في جنوب ايطاليا وصقلية إلى شارلس من آنجو. ولم يكتف الأمير الفرنسي بما حققه من مكاسب في صقلية وجنوب ايطاليا ، وانما راح يطالب بالأراضي البيزنطية في ابيروس وكورفو التي كانت قد آلت إلى مانفريد عند زواجه من أميرة من بيت ابيروس هي هيلين انجيلوس. وقد ألقى شارلس بالأخيرة وأبنائها في سجون نابلي بعد القضاء على زوجها مانفريد . وفي ٢٧ مايو ١٢٦٧م التقى شارلس من آنجو مع الأمبراطور الصليبي الطريد بلدوين الثاني في بلدة فتربو (Viterbo) في حضور البابا كلمنت الرابع . ووقع الطرفان اتفاقية تنازل بمقتضاها بلدوين لشارلس عن السيادة الإقطاعية على إمارة المورة وأراضي بلاد اليونان الأخرى التي كانت في أيدي النبلاء الفرنجة . وكان وليم فلهاردوان – أمير المورة – قد أرسل ممثلا له

إلى ذلك الاحتماع ، وهو ليوناردو دى فيرولي ، الذي تعهد ، نيابة عن سيده ، بالاعتراف بشارلس سيداً إقطاعياً على كل فرسان آخايا ، كما تعهد بامداد الأمير الفرنسي بألفين من الفرسان من أجل استرداد القسطنطينية من أيـــــدي البيزنطيين. وقد توثقت هذه المعاهدة بزواج بياتريس ابنة شارلس من فيليب ابن بلدوين الثاني .

أمام ذلك الخطر الداهم الذي خطط له شارلس من آنجو مع البابوية وبلدوين الثاني ووليم فلهاردوان ضد الدولة البيزنطية ، عمل ميخائيل الثامن على تحييد جمهورية البندقية في صراعه المقبل ضد الفرنجة ، ولذا فقد عقد مع البندقية معاهدة « محبة نقية » (Agapey) أمنها بمقتضاها على مصالحها في كورون ومودون ويوبويا وكريت . كذلك منحها ميناء تساليا وامتيازات تجارية في نجروبونت ، وتعهد بطرد الجنوية من أراضي الأمبراطورية ليحل البنادقــة مكانهـــم .

في ذلك الوقت طلب شارلس من آنجو من فصله وليم فلهاردوان أن يساهم معه في حربه ضد الأمير الألماني كونرادين الذي عبر جبال الألب للمطابة بميراث الهوهنشتاوفن في ايطاليا ومملكة الصقليتين . ورغم أن أرملة مانفريد كانت شقيقة لزوج فلهاردوان ، إلا أنه لم يتوان في تلبية طلب شارلس، وهو الذي ألقى بهذه الأرملة في سجون نابلي ، وشارك وليم فلهاردوان بنفسه وبأربعمائة من فرسانه في معركة تاجليا كوتزو ضد كونرادين . وحلت الهزيمة بالألمان ، رغم تفوقهم العددي ، ويرى البعض أن المصير التعس الذي حل بكونرادين كان من فعل وليم فلهاردوان ، الذي عمل مع سيده شارلي من آنجو على مغالبة الألمان « بحيلة البيزنطيين وشراسة الترك » ، تلك الصفات التي تعلمها في ميادين قتال المورة [٦٤] . فلقد تظاهر فلهاردوان بالتقهقر ، فتشجع الألمان حتى وصلوا

(64) Dante ascribed Conradin's defeat to the creft of a certaln Erarrd de Valeri, not to William of Villehardouin :

« Ove senz'arme vinse il vecchio Alardo. »

إلى معسكر شارلس من آنجو المليء بالمؤن والخيرات ، وعند انشغالهم بتلك الغنائم انقض عليهم فرسان آخايا بغتة فأبادوهم جميعاً .

بعد ذلك الانتصار الساحق على كونرادين رحل ڤلهاردوان مع شارلس من آنجو إلى نابلي ، حيث تلقى الهدايا والعطايا ، ثم عاد إلى المورة . وبعد قليل أبحرت ايزابلا ابنة ڤلها ردوان إلى نابلي لتزف إلى فيليب ابن شارلس آنجو ، وقد تم الزواج في بلدة تراني سنة ١٢٧١ م .

تحرك ميخائيل الثامن فأرسل حملة على مونمڤاسيا ، فاستنجد ڤلها ردوان بسيده شارلس من آنجو. أرسل شارلس الرجال والمال والقمح لڤلها ردوان ، وبعث دريه دي بومونت نائبا عنه للمشاركة في القتال ضد البيزنطيين ، ولكن نتيجة القتال لم تكن حاسمة لأي من الطرفين .

وفي نفس الوقت سعى ميخائيل الثامن إلى التقرب من البابا جريجوري العاشر ليعمل من جانبه على كبح جماح شارلس ، مقابل أن يوافق ميخائيل على ضم الكنيسة البيزنطية لكنيسة روما . وبالفعل نجحت خطة ميخائيل ، إذ طلب البابا من وليم ڤلها ردوان السماح للسفراء البيزنطيين بعبور أراضي المورة في طريقهم إلى الغرب للمشاركة في أعمال مؤتمر ليون الثاني سنة ١٢٧٤ بهدف توحيد الكنيستين . وكان من بين هؤلاء السفراء المؤرخ جورج اكروبوليتا . غير أن عاصفة جرفت إحدى السفن التي كانت تقل السفراء عن رأس ماليا ، وارتطمت السفينة بميناء مودون البندقي ، ومنه تابع السفراء رحلتهم إلى ليون .

ولئن كان تقارب ميخائيل الثامن مع البابوية قد خدم القضية البيزنطية بعض الوقت ، إلا أن هذه السياسة قد أثارت غضبا شديداً بين البيزنطيين جميعا . وتلقف حكام ايبروس تلك الفرصة الذهبية لتوجيه طعنة نجلاء ضد خصمهم ميخائيل الثامن . وكان سيد ابيروس ميخائيل الثاني انجيليوس قد توفي سنة ١٢٧١ ، فخلفه ابنه الأكبر نقفور في حكم ابيروس وجزيرة

ليو كاس . وفي نفس الوقت سيطر يوحنا ، وهو أخ غير شرعي لنقفور ، على مناطق باتراس الواقعة عند قدم جبل أوتيا ، وهي نفس المنطقة التي كانت تحتوي أحفاد المرميدونز الذين كان اخليس قد قادهم لحصار طروادة في قديم الزمان . وكان يوحنا قد وثق علاقاته بأهالي تلك المنطقة بزواجه من ابنة لأحد الأمراء الولاشيين يدعى تاروناس . واحتضن يوحنا قضية الارثوذكسية البيزنطية ، وراح يهاجم سياسة خصمه ميخائيل الثامن ، فاتهمه بالردة والخضوع للمزاعم البابوية على حساب الكنيسة الارثوذكسية وتراثها التموبم . وكان طبيعيا أن تجد « صليبية » يوحنا آذانا صاغية في كل أرجاء الامبراطورية البيزنطية ، حتى إن بعض أفراد الاسرة المالكة من آل باليولوغوس قد انضووا تحت لواء يوحنا . ثم عقد رجال الدين البيزنطيون مجلسا كنسيا في حماية يوحنا ، أنزلوا فيه قراراً بالحرمان على ميخائيل الثامن والبابا وعلى البطريرك البيزنطي الذي سمح بالمشاركة في مؤتمر ليون .

لم يجد ميخائيل الثامن مفراً من أن يتملق غرور « لقيط نيوباتراس » ، فعمل على عقد مصاهرة بين ابن أخته اندرونيكوس تاركانيوتس على ابنة ليوحنا ، ثم أنعم الامبراطور على خصمه بلقب « سباستوكراتور » الرفيع المنزلة . غير أن صنع ميخائيل الثامن قد تمخض عن عكس ما كان يصبو إليه تماماً : فلقد شق العريس عصا الطاعة ضد خاله الامبراطور ، وهرب إلى معسكر حميه يوحنا انجيلوس. وكان على ميخائيل الثامن أن يجرد حملة تأديبية ضد يوحنا واندرونيكوس في نيو باتراس . ولكن يوحنا نجح في الهروب من عاصمته المحاصرة متخفيا في زي حارس للخيول ، واخترق معسكر الجيش الامبراطوري دون أن يتعرف على هويته أحد ، ثم حط على طيبة حيث بلاط يني دوق آثينا الفرنجي . وقد عرض يوحنا على مضيفه يد ابنته هلين مقابل مساعدته في محنته ، غير أن يني تعلل بأن حالته الصحية لا تسمح له بشرف ذاك الزواج المقترح ، وعرض أن تزف هلين إلى شقيقه الأصغر وليم دي لاروش . واتفق أن يتم الزواج بعد هجوم الفرنجة على

معسكر الامبراطور المحاصر لنيوباتراس . ويروى أن عدد فرسان الفرنجة كان لا يزيد على الخمسمائة، في حين أن جيش الامبراطور البيزنطي كان حوالي ٣٠.٠٠٠ ، وأن الدوق الفرنجي لم ينزعج أمام هذا التفوق العددي للبيزنطيين ، وإنما همس في أذن حليفه المتخوف « نعم إن عددهم كبير للغاية ، ولكن الرجال منهم قليل للغاية أيضا » . وانقض فرسان الفرنجة على معسكر الامبراطور في هجوم مباغت ، ونجح يوحنا في دخول عاصمته المحاصرة ؛ بينما تفرق المحاصرون للمدينة . وبعد هذا الانتصار تم الزواج المتفق عليه ، فزفت هلين انجيلوس إلى وليم دي لاروش ، وكان مهرها لعريسها هبة دسمة من الأراضي البيزنطية شملت مدائن لاميا ، ولارسا كريماستي ، وجرافيا ، وسيدرپورتا (هرقلية) .

وبذلك يكون يوحنا انجيلوس الانفصالي ، قد ساهم في توسيع نفوذ دوقية آثينا الفرنجية ، لتقوى شوكتها ضد ميخائيل الثامن ، الذي كان يسعى جاهداً لتوحيد أراضي الامبراطورية البيزنطية جميعا تحت لواء القسطنطينية التي كان قد استردها بعد كفاح مرير !

غير أن يوحنا پاليولوغوس والأدميرال فيلانتروبينوس قادا حملة بحرية على خليج ڤولو ، وحطما الأسطول الفرنجي الذي كان راسياً في الخليج . وقد هلك في المعركة عدد كبير من الفرنجة ، وأسر عدد آخر منهم . سيقوا إلى القسطنطينية . وفي تلك المرحلة من الصراع برز إلى قمة الأحداث مغامر فرنجي يدعى ليكاريو ، الذي ضرب حلفاً وثيقا مع الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن ضد بني جلدته في المورة :

كان ليكاريو فارسا مفلساً من أصل وضيع ، وقد كان يقوم بالخدمة في بلاط جبرتو الثاني دي ڤيرونا صاحب امارة يوبويا . وفي ذلك البلاط كانت تعيش نبيلة فرنجية هي فيليسا (Felisa) وهي أرملة نبيل يدعى نارزوتو . وقد وقع ليكاريو في غرام الأرملة ، وتزوجها في الخفاء . ولكن أقارب

فيليسا النبلاء استنكروا هذه العلاقة ، نظراً لوضاعة أهل ليكاريو ، وأجبروه على الهروب من البلاط وأن يترك فيليسا وشأنها . نزل ليكاريو في جزيرة كاريستوس وأقام في قلعة عرفت باسم « انيموبيلاي » (بوابات الريح) . وتجمع من حول ليكاريو الشريد نفر من الفرسان المفلسين المغامرين ، وراحوا يغيرون على القرى والحقول المجاورة لنهبها ، واقترن اسم ليكاريو برعب زائد في المنطقة كلها . وإلى جانب الكسب عن طريق الإغارة ، كان ليكاريو يهدف في الدرجة الأولى إلى إلقاء الرعب في قلوب النبالة الفرنجية ، انتقاماً لمشاعره التي أهينت على أيديهم . ولذا فقد كان طبيعياً أن يعرض ليكاريو خدماته على ميخائيل الثامن . وزوده الامبراطور بالمال والرجال ، ونجح ليكاريو في أولى ضرباته ، فسقطت في يده جزيرة أوريوس ثم « القلعة الحمراء » (Castel Rosso) التي كانت في يد بارون برغندي هو اوتون دي سيكون .

ولكي يكافىء ميخائيل الثامن حليفه ليكاريو أقطعه نفس الجزيرة التي لاقى فيها أشد الإذلال ، وهي جزيرة يوبويا ، على أن يمده بمائتي فارس ، ثم زوجه من نبيلة بيزنطية على درجة وافرة من الثراء والجمال . وقد زاد هذا الفضل الجديد من حماس ليكاريو ، فتابع نشاطه حتى سقطت في يده قلاع لاكوبا ، ولارمينا ، ولاكلزيورا . ثم أعد العدة للهجوم على جزيرة سكوبيلوس التي كانت في أيدي أمير فرنجي يدعى فيلبو جيزي ، وكان رجلاً مغروراً بنفسه ، وكان يردد دواماً سطراً حفظه من أوڤيد يقول «أنا رجل أقوى من مصائب الدهر » . ولكن ليكاريو — على ما يبدو — كان بدوره أقوى من فيلبو ومصائب الدهر جميعا ، فقد كان صاحبنا يدرك أن تلك الجزيرة تعاني نقصا شديدا في مياه الشرب . وعندما حل فصل الصيف القائظ ضرب ليكاريو الحصار حول الجزيرة ، واضطر الأهلون إلى التسليم ، ووقع البارون فيلبو أسيرا في يد ليكاريو ، فقيده بالأغلال وأرسله ذليلاً إلى بلاط القسطنطينية . ثم زحف ليكاريو جنوبا إلى خليج ناڤارينو واستولى على سيريجو وسيريجوتو .

لم يكن الفرنجة وحدهم هم الذين انزعجوا من جراء مغامرات ليكاريو الموفقة ، وإنما بدأت جمهورية البندقية هي أيضا تخشى على مصالحها في المنطقة ، وخاصة في جزيرة يوبويا ، التي كان ميخائيل الثامن قد أقطعها إلى ليكاريو . ولهذا فإنه عند تجديد معاهدة « المحبة » بين ميخائيل الثامن والبندقية سنة ١٢٧٧ أصرت البندقية على إدراج بند جديد في المعاهدة كالآتي : « إنه من حق البندقية أن تساعد سكان جزيرة يوبويا إذا ما تهددهم خطر من جانب صاحب الجلالة الامبراطور نفسه » (٦٥) .

لقد قويت شوكة ليكاريو ، خاصة بعد أن استخدم في جيشه فرقة من المرتزقة القطلان . وهجم هذه المرة على مدينة نجروبونت ، فهرع يني دوق آثينا وغالبية فرسان الفرنجة للدفاع عن المدينة ، ولكن ليكاريو قد انتصر عليهم جميعا ، وجرح الدوق في القتال وسقط من على جواده فوقع أسيرا في أيدي ليكاريو الذي اقتاد الدوق وبقية الاسرى من النبلاء إلى القسطنطينية . وكان من بين الأسرى البارون جبرتو الثاني دي ڤيرونا ، الذي كان ليكاريو في القديم خادماً في بلاطه . ويروى لنا مؤرخ معاصرة صورة للموقف في العاصمة البيزنطية : وقف جبرتو الثاني ذليلاً على باب العرش الامبراطوري ، إذ كان ميخائيل الثامن متربعا على عرشه والوزراء والمستشارون يحيطون به من كل جانب . ويدخل ليكاريو حجرة العرش دون استئذان وقد تزين بالأرواب الفضفاضة ونياشين الانتصار ، ويرمق عدوه البارون الأسير على أعتاب الحجرة بنظرات الاحتقار ، ثم يتطلع البارون فيلمح من الداخل ليكاريو وهو يهمس بشيء في أذن صاحب العباءة الأرجوانية . وهنا يزداد اضطراب الأسير النبيل ، وتسرع دقات قلبه نبضاً عنيفا ، لقد كان هذا أكثر مما يطيقه جبرتو النبيل ، فيتقيأ دما ويسقط ميتاً ، من الغيظ !! (٦٦) .

---

(65) Enrico Dandolo, Cronaca Veneta, apud Muratori, Rerum Italicarum Scriptores, xii, 393.

(66) Nikephoras Gregoras, (Bonn ed.), i, 95-97.

أما عن يني دوق آثينا فقد دفع لميخائيل الثامن فدية مقدارها ٣٠٠٠٠ سوليد من الذهب مقابل إطلاق سراحه ، وتوفي بعدها بعام واحد — سنة ١٢٨٠ م — فخلفه في حكم آثينا شقيقه وليم بارون ليڤاديا .

وعاد ليكاريو ، بطل تلك الأحداث ، من القسطنطينية واستقر في حصن منيع في بلدة فيلا (Filla) ، وكان الجميع يرهبون اسمه . ولم يجرؤ حتى رجال الدين في سهول ليلانتيا من الاقتراب « لمباركة مياه ارتيوزا الطاهرة » في أعياد الغطاس [٦٧] . وقد عينه ميخائيل الثامن أدميرالا للاسطول البيزنطي ، كما أنعم عليه بلقب « الدوق الأكبر » . وبمعونة الأسطول تمكن ليكاريو من أن يختتم تاريخه بالاستيلاء على جزائر سيريفوس وسفينوس من أيدي الفرنجة . وبعدها يختفي اسمه تماماً من تاريخ تلك الفترة ، وكل ما نعلمه أن مغامراً فرنجيا اسمه يوحنا دي لوكوڤا من آنافي قد خلفه في الأدميرالية البيزنطية ، وسار الخلف على درب السلف في تخريب الأراضي البيزنطية التي كانت في أيدي الفرنجة .

عندما أحس وليم فلها ردوان أمير آخايا بثقل المرض عليه استدعى زوجه وابنتيه وكبار أفصاله إلى قلعته المفضلة كالاماتا ، وكتب وصيته الأخيرة . ونصت الوثيقة على أن تؤول الوصاية على زوجه وابنتيه إلى شارلس من آنجو ملك صقلية ونابلي ، وعلى أن يقوم جان دي شوديرن الكونستابل الأكبر وبندكت من بتراس كبير الاساقفة واسقف مودون بالاشراف على تنفيذ مواد الوصية ، فكان على الأول أن يتولى إدارة شئون الإمارة حتى يتمكن شارلس من آنجو من تعيين نائب له عليها . وطلب فلها ردوان أن تحترم جميع هباته للأديرة الفرنجية واليونانية ولبعض الأفراد ، وأوصى كذلك أن يدفن جثمانه في كنيسة سان جيمس في اندرافيدا العاصمة ، ليرقد بجوار والده وأخيه . وتوفي وليم فلها ردوان في أول مايو سنة ١٢٧٨ . وصار

(67) Sanudo, op. cit., 119-120, 122-27, 136 : « batizar la Crol al Fonte. »

يتناوب الصلاة على روحه ووالده وأخيه أربعة من الكهنة عينوا خصيصاً لهذه المهمة في كنيسة سان جيمس حتى « يرقد ثلاثتهم في سلام »
(Requiescant in pace)

بعد وفاة وليم ڤلها ردوان صارت الكلمة العليا في بلاد اليونان إلى بيت آنجو الفرنسي . وفي بداية الأمر كان شارلس قد طلب من بني دوق آثينا الاعتراف به سيداً على كل الفرنجة في بلاد اليونان ، وأوفد جاليران دافري سنكال صقلية للاشراف على شئون آخايا نائبا عنه . ولما وصل السنكال إلى بلدة جلارنتزا جمع البارونات والفرسان وكبار رجال الدين في الإمارة ليطلعهم على أوامر سيده : طلب شارلس من البارونات أن يؤدوا يمين الولاء والطاعة لممثله السنكال نيابةً عنه ، وعلامة على خضوعهم أفصالا اقطاعيين . ولكن بندكت كبير أساقفة بتراس رد على السنكال بأن هذا المطلب يمثل خرقاً للتقاليد الاقطاعية ، لأنه يتحتم على الأمير الجديد للأرض أن يقدم بنفسه لحما ودما لكي يقسم أمام الله والناس ويداه على الأناجيل بأن يحكم وفقا للعرف والتقاليد وبأن يحترم شرف وحقوق أفصاله . وأكد بندكت أن فرسان المورة يفضلون الموت على احتقار تراث الآباء . واضطر السنكال أمام هذا الموقف إلى قبول الحل الوسط ، فطرحت مسألة يمين الولاء والطاعة جانبا ، واكتفى بأن يقسم الحاضرون قسما جماعيا باحترام حقوق شارلس وورثته إن هو احترم حقوقهم بدوره .

وكان أول من خرق هذا القسم السنكال نفسه . إذ قام بطرد بعض الأفصال من أماكنهم القديمة في إدارة شئون الإمارة . وازداد موقف السنكال سوءاً عندما اشتبك مع البيزنطيين في حرب عادت عليه بالخسارة الفادحة والهزيمة . كذلك تذمر الفرنجة لأن رجال السنكال كانوا يغيرون على بعض القرى اليونانية الصديقة للفرنجة . وتوجهت سفارة من بارونات الفرنجة إلى نابلي للشكاية من سلوك السنكال . فعزله شارلس وعين له خلفا مارشال صقلية المدعو فيلبو دي لاجونسا . ولكن فيلبو فشل هو الآخر فيما فشل فيه

جاليران في آخايا . وأمام هذا الفشل أناب شارلس عنه واحداً من بارونات آخايا نفسها هو جي دي لاترموي صاحب كالاتدرتزا للاشراف على شئون الامارة ، ولكن جي كان ضعيف الشخصية عند أقرانه الكبار ، فمنيت مهمته بالفشل أيضا .

وفي سنة ١٢٨١ م وقع شارلس من آنجو معاهدة مع جمهورية البندقية عرفت بمعاهدة أورڤيتو لشن حملة مشتركة ضد القسطنطينية بغية استردادها للفرنجة . وتحدد عام ١٢٨٣ لتنفيذ المؤامرة التي كان سيساهم فيها فيليب الأول من كورتيناي زوج ابنة شارلس بثمانية آلاف من الفرسان و خيولهم . وتعهدت البندقية بالمشاركة بأربعين سفينة . وقد شملت هذه المعاهدة بنداً يؤكد بأنه « لن يكون هنالك سلام ولا مهادنة مع العدو ميخائيل الثامن ولا مع ورثته » .

ولكن فطنة ميخائيل الثامن قد أحبطت هذه المؤامرة الخطيرة : فقد نجح الأدميرال يوحنا دي لوكافو في تحطيم بعض السفن التي أعدتها البندقية للحملة . ثم حلت الكارثة الكبرى بشارلس من آنجو في صقلية ، على حين فجأة ، وكانت أحداث ليلة واحدة في بالرمو كفيلة بالقضاء على كل آمال بيت آنجو . تلكم هي الاحداث المعروفة في التاريخ باسم أحداث « صلوات العشية الصقلية » (Sicilian Vespers) .

الفصل الخامس

صقلية وبيزنطة في عصر باليولوغوس

«C'est l'antre du lion, ceux qui y pénétrent n'en sortent plus. »
(Radolphe de Habsbourg)

بعد انهيار الامبراطورية الرومانية تحت وطأة الغزوات الجرمانية المتبربرة ، مرت جزيرة صقلية بقرن كامل من الاضطراب فكانت عرضة للغزو والنهب من جانب موجات المتبربرين المتعاقبة وبخاصة على يد الوندال . وفي القرن السادس ، وفي عام ٥٣٥ م على وجه التحديد فرض الأمبراطور جستينيان العظيم (٥٢٧ — ٥٦٥) سيطرته الكاملة على الجزيرة ، فبعد أن نجح القائد المرموق بلزاريوس في استرداد صقلية أصبحت سيراكيوز نقطة الارتكاز البيزنطية في الغرب الأوربي . ولقد كان الأثر البيزنطي واضحا في ملامح الجزيرة الحضارية حتى إن اللسان اليوناني ظل سائداً فيها لمدة ثلاثة قرون متعاقبة . كما أن كنيسة صقلية كانت تستخدم نفس الطقوس البيزنطية ، إذ كانت خاضعة لاشراف بطريركية القسطنطينية . ولما أن اشتد الضغط على الدولة البيزنطية في القرن السابع على آسيا الصغرى والبلقان اضطرت السلطات إلى سحب أسطولها وقواتها من أواسط حوض البحر الأبيض المتوسط ، فأخذ النفوذ البيزنطي في صقلية يتضاءل على التدريج .

وفي سنة ٨٢٧ م بدأ الفتح العربي لصقلية على يد أمراء القيروان من الأغالبة ، وفي سنة ٨٣١ دخلوا بالرمو ، وفي سنة ٨٣٥ دانت لهم پانتللريا ، وفي سنة ٨٤٣ فتحوا مسينا بمساعدة أهالي نابلي ، وفي سنة ٨٥٩ استولوا على إينا (Enna) . وفي نهاية القرن التاسع كان البيزنطيون قد أخلوا الجزيرة تماماً من من قواتهم ، فاستولى الأغالبة على تاور مينا سنة ٩٠٢ ، ثم على رومتا (Rometta) سنة ٩٦٥ . وبهذا دانت الجزيرة كلها للعرب ، الذين ظلوا يحكمونها لمدة قرنين ويزيد . وقد طعم العرب جزيرة صقلية بعناصر حضارية بارزة في الدين والقانون والآداب والفلسفة والعلوم . وقد احترم العرب الحرية الدينية للعناصر المختلفة من أهل الجزيرة من بيزنطيين ولمبارد ورومان بل وتتار وزنوج . فكانت صقلية بحكم موقعها وتباين أجناسها نقطة التقاء بين الحضارة الاسلامية والحضارة البيزنطية والحضارة اللاتينية . وقد كان الأثر العربي الحضاري عميقا في تربة الجزيرة حتى إن اللغة العربية ظلت قائمة بعد الغزو النورماندي للجزيرة بقرن كامل ، ولا زالت اللغة الصقلية حتى اليوم تحمل مئات من الألفاظ العربية البحتـــة .

وفي سنة ١٠٦٠ م بدأ الغزو النورماندي لصقلية على يد الأخوين المغامرين روجر وروبرت من بيت تانكرد دى هوتفيل النورماندي . وبعد سلسلة من الحروب واللصوصية سقطت آخر المعاقل العربية في صقلية وهي بلدة نوتو في أيدي روجر ، وذلك في سنة ١٠٩١ فدانت الجزيرة كلها لسلطانه .

وقد شوه روجر الملامح العربية والبيزنطية للجزيرة ، فأجبر الأهلين على اعتناق المذهب الروماني وعلى ضرورة استخدام اللسان اللاتيني ، وكان عليهم أيضا أن يتشحوا بأساليب الحضارة الفرنسية التي تربى روجر في أحضانها في دوقية نورمانديا . وظل النورمان يحكمون الجزيرة بقبضة من حديد من سنة ١٠٩١ حتى وفاة وليم الثاني سنة ١١٨٩ . ولما لم يترك وليم وريثا ذكرا ليخلفه على عرش صقلية ، ظهر له ابن أخ غير شرعي هو تانكرد الذي توج نفسه ملكا على

الجزيرة . وقد تعرض تانكرد – آخر الملوك النورمان في الجزيرة – لمهانة كبرى على يد ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا أثناء عبوره إلى الشرق على رأس الحملة الصليبية الثالثة . ويرجع هذا الموقف إلى أن تانكرد كان قد ألقى بأرملة وليم الثاني في السجن ، ولم تكن تلك الأرملة سوى جوانا شقيقة ريتشارد . وفي سنة ١١٩٤ توفي تانكرد ، ولم يبق وريث شرعي لعرش الجزيرة من البيت النورماندي سوى كونستانس ابنة روجر الثاني . والمعروف أن وليم الثاني كان قد زوج كونستانس (عمته) إلى هنري السادس ملك ألمانيا الذي كان عمره وقتها أقل من نصف عمرها تقريبا . بعد وفاة تانكرد زحف هنري السادس على مسينا فلقي ترحيبا شديدا من الأهلين ، ويقال إنهم كانوا يركعون أمام موكب العاهل الألماني حتى تلمس جباههم تراب الأرض . وتوج هنري السادس ملكا على صقلية في حفل مهيب في بالرمو في عيد ميلاد ١١٩٤ م .

غير أن دوام الحال من المحال ، فسرعان ما تبدلت المشاعر وثار الأهلون ضد الألمان ثورة عارمة . ولكن هنري سحق الثورة ونكل بالثوار في قسوة بالغة . ويروى أن وسائل التعذيب التي استخدمت ضد ثوار صقلية كانت وحشية تماما ، فمنهم من خصي ومنهم من أحرق في الزيت المغلي . ويقال أيضا في هذا الصدد أنه عندما ألقى هنري القبض على نبيل من بيت هوتقيل النورماندي له يد في الثورة ، أعد له تاجا من الحديد الملتهب وألبسه له على رأسه .

وبينما كان الإرهاب يدور على قدم وساق في الجزيرة أصيب هنري السادس بحمى الملاريا وتوفي وهو لا يزال في الثانية والثلاثين من العمر . وقد خلفه على عرش الجزيرة ابنه فردريك الثاني ، الذي كان طفلا لم يتجاوز الثالثة من عمره ، كان تحت وصاية والدته كونستانس النورماندية الأصل . ولما توفيت كونستانس سنة ١١٩٨ آلت الوصاية على الملك الطفل إلى العدو الألد لآل الهوهنشتاوفن ألا وهو البابا انوسنت الثالث ، الذي كان يخطط لحرمان فردريك من ميراث آباءه في ألمانيا . وفي سنة ١٢٠٨ اضطلع فردريك الثاني

بمهام الحكم في صقلية . وبينما سمح فردريك بحكم ألمانيا وفق النظم الإقطاعية التي تجعل من الملك مجرد « الأول بين الأقران » (Primus inter pares) ، إلا أنه أصر على حكم صقلية كأغسطس وقيصر ، حتى إن العملة التي سكها كانت تعرف باسم « أوغسطالس » (Augustales) . وفي سنة ١٢٢١ عقد فردريك برلمانه وأصدر قراراته التي حرمت الميسر وأجبرت المواطنين على العودة مبكرين إلى بيوتهم ، وقررت على اليهود أن يرتدوا لباسا خاصا ، وقضت بطرد بنـــات الليل إلى خارج أسوار المدن مع حرمانهن من دخول الحمامات العامة مع السيدات الطيبات ، كما حثت تلك القوانين على منع التزاوج من الأجانب . وفي سنة ١٢٣١ أصدر فردريك مقننة عرفت باسم « الكتاب الأغسطالي » (Liber Augustalis) الذي ضم مختصراً للقوانين النورماندية السابقة إلى جانب ما أضافه العاهل الألماني من أبعاد أخرى تتمشى مع الحكم المطلق الذي كان يصر عليه آل الهوهنشتاوفن . ومع أن روجر الأول كان قد سمح للجماعات اللومباردية والبيزنطية والعربية والفرنجية من أهل الجزيرة بحق التقاضي وفقا لقوانين كل من هذه الجماعات الخاصة ، إلا أن فردريك قد أصر على احتكام جميع سكان الجزيرة لقانون واحد . وتكشف هذه المقننة الأغسطالية عن قناعة فردريك بأن حكمه كملك لصقلية (Regnum) مستمد من التفويض الإلهي مباشرة ، ومن ثم فإنه كان على رجال الدين وسيدهم البابا ألا يحشروا أنوفهم في الأمور العلمانية . وخول التاج لحامله أن يفصل في محكمة البلاط في أي من القضايا التي ترفع إليه من أية هيئة أو فرد في المملكة . وحرم القانون نفسه على الرعية حمل السلاح . وحذر الموظفين من قبول الهدايا من الشعب ، ونص على معاقبة رواد الحانات والمتسكعين ، وعلى قطع أنف الزانية ، وعلى جلد الزوج الذي يتستر على خيانة زوجته . ومنع القانون وسائل التعذيب اللهم إلا ضد وضيعي الأهل والمرتزقة من المأجورين (Bravi) الذين كان البارونات يستخدمونهم لإرهاب أهل الريف وابتزاز أموالهم . كما حرم القانون ممارسة مهنة الطب إلا لخريجي الكليات المتخصصة في سالرنو من

الذين حصلوا على ترخيصات بممارسة المهنة . وسمح القانون لليهود بممارسة الربا بربح قدره عشرة في المائة ، أما بالنسبة لبقية الرعية فقد كان الربا جريمة كبرى يحاكم عليها القانون . وقد احتكر فردريك المناجم المعدنية في صقلية كلها ، وكذلك كانت الحال مع صناعة الصباغة وتجارة الملح .

وكان بلاط فردريك صالونا عامراً بالأدباء والشعراء والفلاسفة والجغرافيين من العرب والبيزنطيين ، ويقال أيضا ان الأمبراطور كان معجبا بالرقص الشرقي وكانت ببلاطه جوقة من فنانات الشرق لإمتاع الضيوف المرموقين بأفانينهن . وكان الحرس الخاص المفضل لدى فردريك مكونا من المسلمين الذين كانوا يعسكرون في بلدة لوكيرا (Lucera) في أبوليا . والمعروف أنه عندما توفي فردريك الثاني قد كفن في عباءة مطرزة بحروف عربية كوفية ؛ أغلب الظن تلبية لوصيته الأخيرة . وكان البابوات — وهم ألد أعداء فردريك — يشيرون إليه على أنه « السلطان المعمد » . وقد أنزل عليه البابوات اللعنة والحرمان تباعا ، لأنه كان يسخر بهم جميعا ويتهمهم علانية بأنهم «دجالون» وأبعد ما يكونون عن الأمور الروحية . ولم يكن فردريك متعصبا ولا مذهبيا ، وإنما كان متسامحا صادقاً مع كل الديانات والمذاهب ، ولئن قيل إنه حارب الهراطقة،فالحق أنه ما كان يحاربهم بواعز ديني متعصب ، وانما لأنهم كانوا يمثلون مظهراً من مظاهر العصيان ضد « المعين من قبل الله على الأرض » للحكم . وقد أصر فردريك على أن يؤدي رجال الدين الضريبة كاملة ، شأنهم في هذا شأن سائر أفراد الرعية .

وكان فردريك شغوفا بالرياضيات والفيزياء والتنجيم ، ولقد روجت عنه دوائر البابوية الحاقدة أنه مشعوذ وساحر وزنديق وغير نظيف ، ودللوا على هذه الأخيرة بأنه يرتاد « الحمام » عدة مرات كل يوم ! وقد كان لهذه الحملة المسعورة صداها فوجدت آذانا تصدق ما يبثه اللاتيران في عصر الغيبيات والإيمان المطلق الأعمى ، فحتى دانتي قد أنزل ما يكل سكوت ، عالم التنجيم في بلاط

فردريك ، في جهنم مع زبانية السحر الأسود والمشعوذين ، مع أن سكوت كان أستاذا عالماً في الفلسفة وعلوم الحيوان والترجمة عن العربية واليونانية ، وكان فاهما جيداً للعملاقين أرسطو وابن رشد ! وكان فردريك يمتلك حديقة حيوان يصطحب حيواناته التي لا تحصى في رحلاته ، الأمر الذي كان يشكل مشكلة بالغة للبلاد المضيفة له ، لأن الحديقة احتوت فيما قد حوت فهوداً وأسوداً وفيلة وصقوراً . وقد عكف فردريك على دراسة دقيقة للصقور لمدة ثلاثين عاما ، وكتب عنها بحثاً شيقا باللاتينية .

توفي فردريك الثاني سنة ١٢٥٠ م ، وكان قد أمضى أخريات أيامه في قلعته المفضلة في أبوليا محاطا بحرسه وأساتذته المسلمين ، ودفن جثمانه في پالرمو العاصمة الصقلية .

تقف وفاة الأمبراطور فردريك الثاني في ديسمبر ١٢٥٠ علامة « مميزة » في تاريخ ايطاليا بل في تاريخ أوربا كلها . فبعد رحيله عن مسرح الأحداث ظهرت حماسة دفاقة لدى الايطاليين لتكوين جمهوريات المدن المستقلة لكي لا تنجرف ثانية في الصراع الأزلي بين البابا والأمبراطور . كما وضحت النزعات الفردية في مدن الشمال الإيطالي نحو الحكم الاستبدادي الفردي : في فيرونا وپادوا وكريمونة وباڤيا وفرارا وديللاتوري وميلانو. وحتى في روما نفسها ظهر زعيم شعبي بولوني الأصل ، هو برانشاليوني ديجلي اندالو (١٢٥٢ — ١٢٥٨) ، راح يدعو للتحرر من سلطان البابوية والأمبراطورية جميعاً .

أما في صقلية ، التي كان النورمان والألمان قد عملوا على تأصيل الحكم الملكي فيها ، فإن الأمور قد اتخذت مجرى مختلفاً تماماً . فبعد وفاة فردريك الثاني ادعى البابا أن صقلية ملك للسيادة البابوية بعد أن تحررت من « مخالب الهوهنشتاوفن » . وراح البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤) يبحث عن حاكم مطيع للجزيرة على أن يكون « فصلا » للكرسي الروماني ، منتهزاً فرصة عدم توافر وريث شرعي من الهوهنشتاوفن على أرض الجزيرة (in situ) .

غير أن كونراد الرابع الإبن الشرعي لفردريك الثاني زحف من وراء جبال الألب ونزل على ايطاليا في يناير ١٢٥٢ ، وبدأ في استرداد أراضي والده بقوة السيف . فسارع البابا انوسنت الرابع إلى تكثيف مفاوضاته مع أمراء كانوا يتطلعون إلى العرش الصقلي ، وعلى رأس هؤلاء شارلس من آنجو شقيق لويس التاسع من فرنسا ، وأميران من البيت الملكي الانجليزي هما ريتشارد من كورنوول شقيق الملك هنري الثالث ، وادموند ولي العرش الانجليزي . وبينما كانت المفاوضات تدور بين البابا والأطراف الطامعة جاءته الأنباء بوفاة كونراد (مايو ١٢٥٤) .

وهنا ظهر على مسرح الأحداث ابن غير شرعي لفردريك الثاني هو مانفريد صاحب تارانتو ، الذي طالب بعرش صقلية لنفسه ميراثاً عن أبيه ، بعد وفاة الوارث الشرعي كونراد الرابع . وحاول البابا مراوغة مانفريد بأسلوب الدبلوماسية الماكرة ولكن مانفريد لم يستجب للبابا وهاجم الجيش البابوي في أبوليا وألحق به الهزيمة . ووصلت أنباء الهزيمة إلى البلاط البابوي بينما كان انوسنت الرابع في نزعه الأخير (ديسمبر ١٢٥٤) . ولما اعتلى اسكندر الرابع العرش البابوي أرسل جيشا جديدا لقتال مانفريد ، ولكن الجيش البابوي مني بهزيمة أخرى في أبوليا سنة ١٢٥٥ .

ولم يجرؤ أحد في ايطاليا على الوقوف في وجه مانفريد ، الذي أصر على استرداد جميع الأراضي التي كانت تخضع لوالده في طول وعرض ايطاليا . ثم عقد مانفريد حلفا مع جمهورية جنوة سنة ١٢٥٧ لتأمين أراضيه من عدوان بحري في الجنوب الإيطالي وفي صقلية . وفي أغسطس ١٢٥٨ توج مانفريد ملكا على صقلية في العاصمة پالرمو . وبعدها هجم مانفريد على انكونا التي كانت كانت تخضع للبابوية . وقد وجد مانفريد أعوانا مخلصين له في شمال ايطاليا من بين عائلات پاللافتشينو واستنسى ، كما أنه عقد صداقات وطيدة مع عائلة سيينا في توسكانيا .

أثارت هذه التحركات غضب فلورنسا ، التي كانت على عداوة قديمة مع الهوهنشتاوفن ، فزحف مانفريد عليها وألحق بها هزيمة منكرة عند مونت ابرتي في سبتمبر ١٢٦٠ . وبعد هذا الانتصار دانت توسكانيا كلها لمانفريد ، وعلا اسم اهوهنشتاوفن من جديد [٦٦] . ولكي يلقم البابا حجراً ، دفع مانفريد نفراً من أصدقاءه في روما على انتخابه سيناتوراً في مجلس الشيوخ الروماني سنة ١٢٦١. وفوق هذا كله وثق مانفريد علاقاته بقوة أراغون الفتية في شبه جزيرة ايبيريا بأن زوج ابنته كونستانس من الأمير بطرس أكبر أبناء جيمس الأول ملك أراغون (يونيو ١٢٦٢) .

غير أن مستقبل مانفريد قد تحدد مداه عندما اعتلى العرش البابوي رجل فرنسي هو أوربان الرابع ، في سنة ١٢٦١ . كان أوربان فرنسيا متحمسا لفرنسيته ، وقد بذل كل ما في استطاعته لكي يخضع وسط وجنوب إيطاليا للنفوذ الفرنسي على حساب حقوق آل الهوهنشتاوفن . ولذا فإن أوربان أوقف المباحثات التي كان سلفه قد بدأها مع هنري الثالث ملك انجلترا « ذلك الملك الذي كانت شهيته أقوى من أسنانه »، والتفت إلى شارلس من آنجو شقيق لويس التاسع ملك فرنسا ، وعرض عليه تاج صقلية في يونيو ١٢٦٣ . ووافق « القديس » لويس التاسع على العرض المقدم من البابا ، ولم يشعر « قداسته -» بأية غضاضة في أن يقوم شقيقه باغتصاب عرش لا حق له فيه . وكان « القديس » يعلم أن كونراد الرابع قد ترك صبيا صغيرا في ألمانيا اسمه كونرادين، هو صاحب الحق الشرعي في التاج الصقلي دون سواه .

اتفق البابا وشارلس على أن يدفع الثاني للأول خمسين ألفا من الماركات بعد غزوه لصقلية مباشرة ، ثم عشرة آلاف أوقية ذهبية تدفع كل عام للخزانة البابوية ؛ لأن صقلية « إقطاع بابوي » وفق منطق أوربان الرابع . وكان شارلس بحكم نفوذه القوي في پروفانس ومرسيليا يملك الامكانيات

---

(68) « Lo strazio-e'l grande scempio, Che fee l'Arbia colorata in rosso. »

والأسطول لخدمة حملته على صقلية . وقد عزز من موقفه أن حرض البابا واحداً من الكرادلة في روما على انتخاب شارلس عضوا في مجلس الشيوخ سنة ١٢٦٣ . كذلك عقد شارلس عدة أحلاف مع مدن الشمال الإيطالي : مع الماركيز دى مونت فرات في بيدمونت ، ومع ميلانو ومدن لمبارديـــا

هجم مانفريد على المقر الشتوي للبابا في بلدة أورفيتو ، فذعر أوربان الرابع ونادى بالجهاد ضد خصمه فيما يمكن تسميته « بصليبية أورفيتو » . ونجحت صرخات البابا فتصدى جيشه وأتباعه لجيش مانفريد وأنقذوا البابا من الهلاك المحقق . ووقت وفاة أوربان الرابع كان حليفه شارلس من آنجو قد أتـــم استعدادته لغزو صقلية من يد مانفريد . ولقد كانت لشارلس يدٌ في الانتخابات التي تمت بعد وفاة أوربان الرابع ، واختير للعرش البابوي كلمنت الرابع ، وهو فرنسي أيضا ، وكان قد خدم سابقا في بلاط لويس التاسع .

وصل شارلس إلى روما في مايو ١٢٦٥ ، وهناك تم تتويجه ملكا عـــلى صقلية . وبادرت فلورنسا بمباركة هذا التتويج وأقرضت الملك المتوج مائتين ألفا من الليرات ، كذلك أقرضه التجار الرومان خمسين ألفا ، كما ساهم البابا ببعض من المال من جيبه الخاص . وأعلن شارلس أنه مقدم على «الحاق خصمه إلى جهنم أو دخوله هو إلى النعيم » .

التقى جيش شارلس بقوات مانفريد عند بنفنتو في ٢٦ فبراير ١٢٦٥ ، ودارت الدائرة على مانفريد الذي قتل في ميدان القتال . وهكذا دانت صقلية للفاتح الفرنسي الجديد ، الذي وزع أراضي الجزيرةعلى أتباعه الفرنسيين من فرسان بروفنسال .

غير أن كونرادين زحف على رأس رجاله سنة ١٢٦٧ لمقاتلة شارلس من آنجو واسترجاع صقلية . ولقد وجد الأمير الألماني تأييداً لقضيته في الشمال الايطالي ، كما رحب به الأهالي في روما وأقاموا له أقواس النصر تحفه الفتيات إلى مبنى الكابيتول .

وقد اضطر البابا كامنت الرابع إلى الفرار إلى بلدة فيتربو ، وهنالك وصف كونرادين الذي كان مجرد صبي في الخامسة عشرة من عمره بأنه « الحمل الذي سوف يساق إلى جزاره » . وتحققت نبوءة البابا ، ففي أغسطس ١٢٦٨ قضى شارلس على قوات كونرادين في واقعة تاجليا كوتزو (Taglia Cozzo) ، وفر الملك « الطفل » إلى نابلي حيث قبض عليه وحكم عليه بالاعدام . وكانت آخر كلماته : « يا له من خبر محزن لوالدتي التعسة » ! ! .

والايطاليون شعب كل منتصر جديد : فلقد سارع أهل توسكانيا بتهنئة شارلس وبالاعتراف به « نائبا امبراطوريا » على جميع مدائنهم ، كما أن شعب روما انتخبوه للسيناتورية في مجلسهم الموقر لمدة عشرة أعوام متتابعة . ولما أن توفي البابا كلمنت الرابع ظل العرش البابوي شاغراً لأكثر من ثلاثة أعوام (نوفمبر ١٢٦٨ إلى ديسمبر ١٢٧١) ، فصارت الأملاك البابوية امتداداً لنفوذ سيد صقلية الفرنسي . وظل البابوات في روما بعد ١٢٧١ يرهبون قوة شارلس من آنجو حتى كان عام ١٢٧٧ ، عندما اعتلى نيقولا الثالث العرش البابوي (١٢٧٧ – ١٢٨٠) .

كان نيقولا الثالث من زعماء الكرادلة المناهضين للنفوذ الفرنسي في روما بوجه خاص وفي ايطاليا بشكل عام . ولدينا قصيدة كتبها كاهن فرنسي سنة ١٢٧٠ يستشف منها أن أمور الدين والدنيا (الإمارة والكهانة Regnum et Sacerdotium) قد انتقلت من أيدي الرومان إلى أيدي الفرنسيين (٦٩) . وكان نيقولا الثالث من أبناء أسرة أورسيني الايطالية العريقة في تاريخ النبالة وفي سجلات البابوية أيضا ، وكانت تملك أملاكا إقطاعية عريضة في جنوب روما . ولقد عمل نيقولا على أن يدخل عضواً في مجلس الشيوخ مباشرة عند انتهاء عضوية شارلس التي دامت عشرة أعوام كاملة ، كما كانت له يد في استصدار قرار

(69) G. de Luca, « un formulario della cancelleria francescana e altri formulari tra il XIII et XIV secolo », Archivio per la Storia della Pieti, I (1951).

يمنع الحكام العلمانيين من السيطرة على الشئون الخاصة بالمدينة . كذلك قام بتعيين واحد من أبناء عمومته عميدا للولاية البابوية شمالي روما ، كما أوفد اثنين من أتباعه ، من بينهم أحد الكرادلة ، للأشراف على رومانا جنوب شرقي وادي البو . ثم عين أخاه نائبا له ، وأصر على الإقامة داخل أسوار المدينة ، معلناً بذلك أنه قد عقد العزم على تحرير روما من مخالب بيت آنجو . ولكن الموت فاجىء نيقولا الثالث سنة ١٢٨١ . واعتلى العرش البابوي رجل فرنسي هو مارتن الرابع (١٢٨١ – ١٢٨٥) ، الذي كان قد خدم من قبل في بلاط لويس التاسع . وكان مارتن الرابع فرنسيا متعصبا لفرنسيته إلى حد بالغ ، فانحاز تماما إلى شارلس من آنجو، ولقد أثر عنه قوله : « وددت لو كنت لقلقاً والألمان ضفادعا في مستنقع فألتهمهم جميعا ، ولو أنني كنت كراكياً في بحيرة والألمان أسماكا لابتلعتهم أيضا » (٧٠) . كما أن ألمانيا معاصرا كتب عنه يقول : « لقد وزع مارتن الرابع كنيسة الله على الفرنسيين ، وكان يبغي أن يحكم العالم كله بالأسلوب الفرنسي » (٧١) . والواقع أن مارتن الرابع قد اختار نوابه من بين مستشاري شارلس من آنجو. ولما أن اختير عضوا في السيناتو، تنازل عن هذه العضوية لشارلس ، فمسخ بهذا قرار سلفه الراحل . كما أنه هجر مدينة روما واستقر في أومبريا في حماية كتيبة فرنسية من جند آنجو . وقد كان لهذا الموقف المنحاز لبيت آنجو من جانب البابا صداه العميق في آداب تلك الفترة ، فقد كتب جان دى ميونج (Meung) في قصيدة له بعنوان Roman de la Rose يقول :

---

(70) Continuatio Vindoboniensis, in Monumenta Germaniae Historica Scriptores, IX, 712-13.

(71) « Notitia Saeculi », in Alexander of Roes, Schriften, ed. H. Grundmann and H. Heimpel, 162-3.

لقد هلك مانفريد بفعل الخيانة
ووقعت الأرض لقبضة آل آنجو
ومن ذا الذي يجرؤ على التحدي؟[٧٢]

وبعد أن ثبت شارلس من آنجو أقدامه في صقلية وايطاليا ، التفت الى مشروعاته الكبرى في حوض البحر الأبيض المتوسط . ومن هنا كان صدامه مع الدولة البيزنطية . والمعروف أن شارلس قد اشترى من ماري الأنطاكية «مدموازيل دى جروزاليم» التاج الذي ورثته عن جودفروا دى بويون .

كان ميخائيل الثامن پاليولوغوس قد قاسى الأمرين من جانب فرنجة آخايا والبيزنطيين الانفصاليين في ابيروس ، وأيضا من جانب مانفريد ملك صقلية . وبعد مقتل مانفريد اضطلع شارلس من آنجو بالخطط العدوانية ضد بيزنطة ، وكان هدف الملك الفرنسي لصقلية الحصول على تاج الدولة البيزنطية ، الذي كافح پاليولوغوس في سبيله كل الكفاح حتى توج أعماله باسترداد القسطنطينية من أيدي اللاتين سنة ١٢٦١ . ولكي يحقق شارلس أغراضه عمل على استخدام البابوية مخلبا في الترويج لحملة صليبية يتستر تحت رايتها للانقضاض على القسطنطينية . ومن هنا كان تحرك ميخائيل الثامن وتقاربه من البابا جريجوري العاشر ، ثم مشاركة سفراءه في مؤتمر ليون ١٢٧٤ لتوحيد كنيستي بيزنطة وروما . غير أنه باعتلاء مارتن الرابع العرش البابوي ، لم تعد البابوية تهتم بمصير ميخائيل الثامن ولا بدولته ، وتجاهلت جهوده وتنازلاته الخطيرة التي ألبت عليه شعبه وكنيسته بسبب موقفه في مؤتمر ليون ١٢٧٤ .

ولكي يجابه ميخائيل الثامن پاليولوغوس العدوان الصليبي الجديد الذي تستر تحت رايته شارلس من آنجو ، اتصل ببطرس الثالث ولي العهد في مملكة أراغون . وكان بطرس زوجا لكونستانس ابنة مانفريد ، الذي قتل على يد شارلس من

---

(72) Roman de la Rose, ch. 42 (tr. F. S. Ellis).

آنجو . والمعروف أن كونستانس عندما أتتها أنباء مقتل أبيها قد أصرت على أن تلقب « بملكة صقلية » . كما أن بطرس قد رحب في بلاطه بالفارين من صقلية من وجه شارلس من آنجو ورجاله ، ومن بين هؤلاء الفارين كان كونراد لانكيا ، الذي كان قريبا للأميرة كونستانس .

والواقع أن الحكم الفرنسي لصقلية قد أثار غضب أهلها ، ومهد ذلك للثورة ضد ذلك الحكم الإرهابي . فلقد دمغ شارلس خصومه في الجزيرة بالهرطقة لكي يتخلص منهم بتلك الذريعــة . وكان ضباطه أشد قسوة على الأهلــين من القسوة ذاتها ، على حد تعبير المعاصرين (٧٣) . ولما ثارت مدينة أوجستا ضد الحكم الفرنسي ، قام الفرنسيون بتسوية البلدة بالأرض وقتلوا أهلها جميعا . ولكي يدفع شارلس نفقات فرسانه، قام بمصادرة أملاك الأهالي وأقطعهـــا لفرسانه المفلسين . كما جلب عدداً من الفرنسيين ووطنهم في الجزيرة . ولم يبق من بارونات الجزيرة من يملك أرضا إلا ذلك النفر الذين دفعوا لشارلس رشوة دسمة . وسيطر على جهاز حكم الجزيرة موظفون فرنسيون وايطاليون ، وكلاهما عنصر كريه لدى الصقليين (٧٤) . وهكذا كان حكم آنجو لصقلية أشبه ما يكون بغرس حامية عسكرية وسط بحر من الغضب . وزاد شارلس الطين بلة بأن أدخل في الجزيرة نظام السخرة الفرنسي (Corvée) . وحرم شارلس على الصقليين الرعي في الغابات الملكية ، بينما كان من حق الملك الانتفاع بغابات الآخرين . وتروى الروايات أن كثيرين من بارونات صقلية قد أذلوا وأجبروا على خدمة الملك الفرنسي وضيوفه على المائدة ، بل كان على بعض هؤلاء البارونات حمل نفاية الطعام إلى المطابخ وغسلها . ونسمع أيضا عن فتيات

---

(73) Nicolas Specialis, in Muratori, Vol. XIII, p. 924 : « Quae imnia et graviora quidem, ut arbitror, patienti animo Siculi tolerassent, nisi alienas foeminas invasissent. »

(74) See Smith D.M. A. History of Medieval Socily.

من أسر صقلية عريقة أجبرن على الزواج من فرنسيين وضيعي الأصل وعلى درجة مخيفة من الانحلال الخلقي .

وجد بطرس الثالث وميخائيل الثامن أسباب الثورة في صقلية مهيأة تماماً ضد الحكم الفرنسي البغيض . وفي سنة ١٢٧٦ إعتلى بطرس الثالث عرش أراغون خلفا لوالده جيمس الأول ، وأخذ يعد العدة لمصارعة شارلس من آنجو . وكان بطرس صاحب ثأر ضد شارلس الذي قتل حماه مانفريد ، كما أنه كان يتطلع لتاج صقلية لحساب زوجه كونستانس . كذلك كان بطرس على عداء قديم مع شارلس على ملكية بعض الأراضي في بروفانس وغسقونيـــا وسردينيا . وقد رحب بطرس بالفارين من صقلية وعلى رأسهم كونراد لانكيا والديمو دى لنتيني ويوحنا من بروكيدا . وكان يوحنا أستاذا للطب ، وهو الذي كان يشرف على صحة فردريك الثاني ، ثم عمل مستشاراً لمانفريد ، ولما صودرت أملاكه على يد شارلس من آنجو فر إلى بلاط أراغون يطلب الحماية من بطرس الثالث . ويبدو أن يوحنا هذا قد عاد متنكرا إلى الجزيرة ليدبر أمر الثورة ضد شارلس من آنجو ، وكان يوحنا على اتصال بميخائيل الثامن پاليولوغوس بين آراغون وبيزنطة في العمل ضد العدو المشترك.ويبدو أنه قد تلقى مالا للتنسيق وسلاحاً من بطرس وميخائيل الثامن پاليولوغوس للإعداد للثورة ضد شارلس من آنجو . ونحن نعلم أن سفيرا من أراغون يدعى تابرنر (Taberner) كان موجوداً في القسطنطينية في ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، كما أن ميخائيل الثامن قد أوفد جنويا اسمه زكريا إلى بلاط أراغون . وكان يوحنا پروكيدا يمثل همزة الوصل بين أراغون وبيزنطة ومدبري الثورة في جزيرة صقلية .

في سنة ١٢٨٢ كان شارلس من آنجو قد انتهى من إعداد مائتي سفينة في ميناء مسينا لنقل جنود حملته المرتقبة ضد القسطنطينية . وفي نفس الوقت كان الذهب البيزنطي قد فعل فعله في نفوس الصقليين . والحق أن أهالي صقلية ، ومن بينهم عدد كبير من اليونانيين ، كانوا متعاطفين مع قضية ميخائيل الثامن

باليولوغوس ضد شارلس من آنجو . ناهيك عن مشاعر الكراهية لدى الصقليين لأساليب الحكم الفرنسي الارهابي للجزيرة . ويحدثنا ميخائيل الثامن پاليولوغوس نفسه في « تاريخ حياته » أن أهالي صقلية كانوا يمقتون جند الملك المتبربر (شارلس) ، وكانوا على استعداد لحمل السلاح لتحرير أنفسهم من قبضته ، « وإني إن زعمت أنني كنت أداة للإرادة الإلهية في تحريرهم ، فلن أجافي الصواب في قولي » .

وهكذا فإن الخطط والمؤامرات كانت تدبر وتحاك في كل مكان في حوض البحر الأبيض المتوسط : في پالرمو ، وفي بلاط أراغون ، وفي نابلي ، وفي روما ، وفي آخايا ، وفي ابيروس ، وفي بيزنطة ، وفي البلاط البابوي . ولكن التاريخ والمؤرخين أحيانا ما يصادفون عاملا باطنا ينفجر على حين فجأة فيخيب ظنون المؤرخ والقائد ورجل السياسة جميعاً . وهذا هو ما حدث تماما في صقلية . فبينما كانت الخطط تجري على قدم وساق ، وكل يمني نفسه بالغد المأمول ، إذ بالبركان يتفجر في بالرمو ، في تلك الحادثة الخطيرة التي عرفها التاريخ باسم « أحداث صلوات العشية الصقلية » (Sicilian Vespers) :

ففي يوم الاثنين لفصح ١٢٨٢ م الموافق الثلاثين من مارس ، بينما كان القداس يُتلى في كاتدرائية الروح القدس في پالرمو ، قام جندي فرنسي بمغازلة سخيفة لسيدة صقلية شابة ، في صحن الكاتدرائية . وفجأة ظهر زوج السيدة مزمجراً وخنجره في يده ، وطعن الجندي الفرنسي طعنة قاتلة ألقته صريعا في بركة من دماءه في صحن بيت العبادة . وغلت المشاعر . وبينما كانت أجراس الكاتدرائية تدق مؤذنة بحلول وقت « صلاة العشية » (Vespers) كانت شوارع پالرمو تدوى بالهتاف « الموت للفرنسيين » ، وتمت ليلتها مذبحة رهيبة ضد الجند الفرنسيين في پالرمو . وانتشرت أخبار المذبحة إلى بقية مدن الجزيرة ، فحذت حذو بالرمو كل من كورليون ومسينا ، واندلعت الثورة وأعلنت المدن الثلاثة استقلالها .

ولم تقتصر المذبحة على الفرنسيين وانما شملت جميع الأجانب الذين كانت لهجتهم تفضح هويتهم الغريبة عن الجزيرة . وهجم الصقليون على الأديرة الفرنسية وقتلوا كل من وجدوه بداخلها . وحتى النسوة الصقليات اللائي قيل أنهن قد حملن من فرنسيين قتلن هن أيضا أشنع قتلة .

وفي أثناء ذلك انعقد البرلمان في بالرمو وأعلن استقلال صقلية « الجمهورية » وانتصار الثورة الشعبية . ولكن البابا مارتن الرابع سارع بإصدار قرار بالحرمان ضد أهل الجزيرة جميعا ، ولكن الثوار ضربوا بالقرار والبابا عرض الحائط ، وفي خلال أسابيع قلائل تم طرد الفرنسيين من الجزيرة كلية (٧٥) .

غير أن شارلس من آنجو ، الذي كان قد تلقى « بركات » البابا مارتن الرابع لحملته الصليبية ضد بيزنطة ، قد فاجأته كارثة پالرمو ، فراح يخطط لهجوم مضاد لتقليم أظافر الصقليين . فبادر الصقليون بإيفاد سفارة إلى بطرس الثالث ملك أراغون ، الذي كان يقود أسطوله على شواطيء الجزائر ، يطلبون منه العون ضد العدوان المرتقب من جانب الفرنسيين . وعرض الصقليون تاج جزيرتهم على زوجه كونستانس صاحبة الحق الشرعي فيه . ولم يتردد بطرس في قبول العرض ، وأبحر بأسطوله وألقت مراسيه في ميناء تراپاني **Trapani** في ٣٠ أغسطس ١٢٨٢ . ثم التقى الخصمان وانتصر بطرس على شارلس من آنجو . وفي الرابع من سبتمبر ١٢٨٢ توج بطرس الثالث ملكا على صقلية ، وبتتويجه تحطمت آمال شارلس من آنجو وحليفه البابا مارتن الرابع . لقد أتت سياسة ميخائيل الثامن أكلها .

وقد توفي شارلس من آنجو سنة ١٢٨٥ م .

---

(٧٥) ظلت أحداث صقلية الدموية درسا مريراً يؤرق الكرامة الفرنسية ، ومن أطرف ما دار حول هذه الأحداث تلك المحادثة التي جرت بين الملك الفرنسي هنري الرابع وبين السفير الاسباني :

هنري : إنني لو غضبت فسوف أتناول إفطاري في ميلانو وغذائي في نابلي »

السفير الاسباني : مولاي ، ربما تفكرون جلالتكم أيضا في أن تتناولوا طعام العشاء وقت صلوات « المغرب » في صقلية » .

« If I am provoked », said Henry IV, « I will breakfast at Milan, and dine at Naples. » « Your Majesty; replied the Spanish ambassador, » may perhaps arrive in Sicily for Vespers. » (See Hallam, Middle Ages, I, 517).

الفصل السادس

باليولوغوس ومجمع ليون ١٢٧٤م

اجتازت العلاقات بين الأمبراطور والبطريرك البيزنطيين تغيرات كبيرة بعد سقوط القسطنطينية في أيدي رجال الحملة الصليبية الرابعة . فلقد برزت في الأفق مشكلة دستورية ؛ ذلك أنه عقب الغزو الصليبي لبيزنطة سنة ١٢٠٤ هرب البطريرك يوحنا كماتيروس إلى بلغاريا ، وبعد بعض تردد تنازل عن منصبه ، دون أن يعلن وجهة نظره في مسألة الخلافة للعرش البطريركي البيزنطي الذي اغتصبه كاهن لاتيني من البندقية هو موروسيني . ولما أن نجح تيودورلاسكارس في إقامة حكومة المنفى في نيقيا ، جمع من حوله عدداً من المطارنة ، ثم أوعز إليهم باختيار ميخائيل أوتوريانوس بطريركا . وتولى البطريرك الجديد تتويج تيودور أمبراطوراً . وهنا برز التساؤل : هل كان من حق تيودور أن يختار بطريركا قبل أن يتوج أمبراطورا ؟ كذلك تساءل البعض عن قانونية إقامة بطريرك الدولة البيزنطية كلها في نيقيا دون سواها .

تتضح الإجابة عن هذا التساؤل على ضوء موقف حكومات المنفى الأخرى التي كانت تزعم لنفسها أيضا الحق في تمثيل المشاعر البيزنطية بشكلها العام . أما عن حكومة طرابيزوند فقد رفضت الاعتراف بالبطريرك والأمبراطور النيقيين على حد سواء ، ذلك أن سيد طرابيزوند قد توج هو أيضاً أمبراطوراً على يد

كبــير أساقفة دولته . وظلت طرابيزون ترفض الاعتراف ببطريرك نيقيا حتى عشية استرداد القسطنطينية (١٢٦٠) ورغم اعترافها به في النهاية إلا أن كبير مطارنتها تمسك بحقه في تتويج أباطرة طرابيزوند من آل كومنين [٧٦] .
أما حكام ابيروس من بيت أنجيلوس فإنهم لم يكتفوا برفض الاعتراف باجراءات أمبراطور نيقيا فحسب ، وإنما أقدم أحد أبنائهم بعد غزو سالونيكا من أيدي الفرنجة على تتويج نفسه أمبراطوراً لبيزنطة على يد كوماتيانوس مطران أوخريدا ، اللاهوتي والقانوني الشهير . وقد أذاع كوماتيانوس في تلك المناسبة أنه من حق الأمبراطور المتوج على يده أن يتصرف في منصب البطريركية البيزنطية كما يحاو له .

غير أن الرأي العام البيزنطي في سائر أرجاء الأمبراطورية المنهارة بوجه عام وفي ابيروس بوجه خاص كان متعاطفاً مع أباطرة نيقيا ، الذين باتت الآمال معقودة عليهم لتخليص البلاد من نير الصليبيين جميعاً . وقد عزز من هذا الموقف المشايع ذلك النجاح المرموق الذي حققه سادة نيقيا على فرنجة بلاد اليونان بحد السيف .

وهكذا فإنه ابتداء من سنة ١٢٣٢ رضخت ابيروس للأمر الواقع ، ووافقت سلطاتها على أن يتم تعيين رجال الدين لكنائس مملكتهم بواسطة بطريرك نيقيا . وفي سنة ١٢٣٨ قام بطريرك نيقيا بزيارة لابيروس ، فاستقبل فيها استقبالا حافلاً . وحتى سنة ١٢٦١ ظل بطريرك نيقيا يحكم كنائس ابيروس وشبه جزيرة بلاد اليونان عن طريق نائب عنه (اكزارخ) هو مطران انسيرا الذي كانت أبروشيته قد وقعت في أيدي الأتراك السلاجقة .

من هذا يتضح أن نفوذ بطريرك نيقيا كان في واقع الأمر أكثر شمولا وهيبةً من نفوذ أمبراطوار نيقيا نفسه على سائر الولايات البيزنطية . ومن هنا كان

(76) Mgr. Chrysanthos, E. Ecclesia tes Trapezantos, pp. 177-8.

تطور العلاقة بين الأمبراطور والبطريرك ، فلقد ظل الرئيس الديني راعيا على كل الكنائس ورجالها في نيقيا وابيروس وحتى في الأراضي الخاضعة للأتراك السلاجقة . هذا بينما لم تعترف حكومات ابيروس وطرابيزوند بسلطان الأمبراطور عليها . ويعني هذا أن البطريرك لا الأمبراطور هو الذي أمسى في ذلك الوقت يمثل الرمز لوحدة الأمبراطورية البيزنطية، الأمر الذي شكل انقلابا خطيراً في وضع السلطتين الزمنية والدينية في بيزنطة .

وتتضح الخطورة ودلالتها عندما أقدم أباطرة نيقيا على فتح باب المفاوضات مع البابوية في روما بهدف توحيد الكنيستين الرومانية والبيزنطية . فلقد سارع البطارقة إلى إعلان مواقفهم بأن أية تنازلات « مذهبية » لإرضاء الكنيسة اللاتينية سوف تؤدي إلى سخط عام بين أفراد الرعية الأرثوذكسية المقيمين خارج مملكة نيقيا ، بل وفي داخلها أيضا . ومن هنا سعى بطريرك نيقيا دواما على ألا تنجح المفاوضات بين الأمبراطور والبابا . وبمعنى آخر فإن مصالح المؤسستين البيزنطيتين باتت متعارضة أشد التعارض .

وكان أباطرة نيقيا على بينة من مغبة هذه الخطورة ، ولذا فإنهم كانوا يختارون للمنصب البطريركي أفراداً غلبت عليهم صفات الزهد والتقشف وعدم الاهتمام بالأمور الدنيوية . ويحدثنا نقفور بلميديس (٦٦) أنه عندما أشرف البطريرك جرمانوس الثاني على الموت أوصى بأن يخلفه صاحبنا بلميديس الفقيه . ولكن بلميديس كان صاحب تطلعات وميول علمانية ، ولذا فإن الأمبراطور يوحنا ڤاتاتزيس عرض عليه منصب عمادة مدرسة القصر ، ولكنه رفض ذلك المنصب متعللاً بأنه يرغب في مكان « يؤمن له الحياة الروحية الهادئة » ، وهو يعني بطبيعة الحال العرش البطريركي الذي لم يعرضه عليه الأمبراطور . وعاود بلميديس ابداء رغبته في العرش البطريركي في عهد تلميذه الأمبراطور تيودور

---

(76) Nicephorus Blemmydes, Curriculum Vitae et Carmina (ed. A. Heisenberg), pp. 38-39.

الثاني . وطبقا لرواية بلميديس نفسه نعلم أن الأمبراطور قد عرض عليه ذلك المنصب بشرط أن يكون لصاحب الجلالة الحق في رئاسة المجامع الكنسية ، وأن يقبل البطريرك مشاركة بعض العلمانيين في تلك المجامع المتصلة بأمور العقيدة . ولكن بلميديس أفهم الأمبراطور أنه يقبل البطريركية بشرط واحد ، وهو أن يكون رائد الأمبراطور في الدرجة الأولى «تمجيد إسم الرب» . ويبدو أن هذه الملاحظة المكنية قد أغضبت الأمبراطور فصاح في محدثه « دعنا الآن من مسألة تمجيد الرب ؟ ! ويمضي بلميديس محدثا بأنه قد صدم عند سماعه لهذه العبارة وقرر رفض المنصب البطريركي (٧٧) .

ومن الجائز جدا أن يكون الأمبراطور تيودور الثاني قد ناقش بالفعل مسألة شغل العرش البطريركي في نيقيا مع أستاذه القديم بلميديس ، ولكننا نعلم علم اليقين أنه لم يقع الاختيار على بلميديس لشغل ذلك المنصب الخطير ، وإنما كان من نصيب راهب زاهد هو أرسنيوس أيوتوريانوس من أپوللونيا ، وهو الذي شغل المنصب البطريركي أيضا في عهد ميخائيل الثامن پاليولوغوس .

لقد كان نفوذ البطريرك أشمل من نفوذ الأمبراطور ، ولذا حرص الأباطرة على اختيار أشخاص يثقون فيهم لشغل هذا المنصب الخطير . والواقع أن الحروب التي خاضها الأباطرة ضد أعداء يحيطون بالدولة من كل مكان قد أدت إلى انكماش نفوذ الأمبراطور . وقد كان لذلك أسوأ الانعكاسات على بلاط الأمبراطور ، فلقد قل دخل الخزانة فتقلصت مظاهر الاحتفالات ، وتدهورت تلك الهالة التي كانت تحف بجيش خليفة قسطنين العظيم . وبانهيار مركز الأمبراطور في نظر أعـــداءه ورعايـــاه ازداد مركز البطريرك ، وباتت البطريركية هي الدعامة الوحيدة المتبقية للشد من أزر الأمبراطور بعد أن أصابه العجز (*) .

---

(77) Ibid.

(*) See Runcimen, S. The Great Church in Captivity.

من واقع هذه التطورات التاريخية تولدت الصعوبات في وجه ميخائيل الثامن باليولوغوس في سياسته الدينية . وميخائيل صاحب سجل حافل من المغامرة والمقامرة السياسية ، وهو مغتصب للعرش أيضا . ولذا فإن البطريرك أرسنيوس يرقب تحركاته في ريبة شديدة ، ووجد ميخائيل الثامن نفسه مضطرا إلى أن يقسم للبطريرك بأنه سيحافظ على حقوق شريكه في الحكم الأمبراطور الطفل يوحنا الرابع . ولكن سلوك ميخائيل الثامن كان مريبا في هذه المسألة بالذات ، فاستقال أرسنيوس من منصبه احتجاجا على ذلك في سنة ١٢٦٠ . ولكن البطريرك الجديد توفي بعد شهور قلائل من تنصيبه ، فطلب ميخائيل الثامن من أرسنيوس الرجوع إلى عرشه البطريركي ، ووعده ثانية بأنه لن يمس حقوق الأمبراطور القاصر يوحنا الرابع .

ولما أن دخل ميخائيل الثامن القسطنطينية ظافرا ، وهتف به البيزنطيون جميعا على أنه المخلص من نير الفرنجة ، دخل في روعه أنه مبعوث العناية الربانية ، ومن ثم فإنه لم يجد حرجا في أن يحنث بالعهد الذي كان قد أقسمه للبطريرك ، وأزاح الأمبراطور الطفل من طريقه فألقى به في السجن وأمر بسمل عينيه أيضا .

ولكن أرسنيوس . رجل الله ، لم يتردد لحظة في أن ينزل قرار الحرمان على رأس ميخائيل الثامن وهو في قمة سطوته ومجده . وكان هذا العمل جريئاً إلى أقصى الحدود ، فهو اجراء لم يحدث في تاريخ الدولة البيزنطية من قبل إلا مرة واحدة سنة ٩٠٦ ، عندما حُرم ليون الرابع بسبب زواجه للمرة الرابعة ، ولهذا فإن قرار أرسنيوس قد قوبل بالضيق حتى بين بعض المطارنة . واحتج ميخائيل الثامن على القرار دون جدوى ، فقرر الانتقام من أرسنيوس . وفي سنة ١٢٦٤ أصدر أمراً بالقبض على بعض موظفي الديوان البطريركي ، ولكن أرسنيوس فرض حمايته على هؤلاء الموظفين ورفض تسليمهم للسلطات الأمبراطورية ، ثم أطلق لسانه بعبارات خشنة ضد الأمبراطور . ولكن الذي

حدث أن هؤلاء اللاجئين إلى حماية البطريرك قد فزعوا من تهور أرسنيوس ، فسارعوا بتسليم أنفسهم للرحمة الأمبراطورية .

ثم جمع ميخائيل الثامن مجلسا حضره بطريركا الاسكندرية وانطاكية ، اللذان تصادف وجودهما في القسطنطينية آنذاك، لمحاكمة أرسنيوس . ووجه المؤتمر إلى البطريرك عدة اتهامات ، منها أنه أسقط اسم الأمبراطور من الذكر في القداسات ، وأنه قد سمح لأمير تركي سلجوقي لاجيء بالتناول . ويروى أن الأمير التركي قد أبدى رغبته في الإدلاء بشهادته لتبرئة أرسنيوس من التهمة الأخيرة ، ولكن الأمبراطور رفض ذلك . ورفض أرسنيوس الظهور أمام المجلس لعدم قانونيته ، فأصدر المجمع قرارا بادانته ، رغم معارضة بطريرك الاسكندرية .

وقام ميخائيل الثامن بخلع أرسنيوس من عرشه ثم أرسله إلى المنفى في أحد الأديرة النائية ، وهناك توفي الرجل بعدها بسبع سنين . واعتلى العرش البطريركي بعد ذلك جرمانوس الثالث مطران أدرنة ، وكان كريها لدى الشعب بسبب غروره وثقل ظله ، فقرر المجلس خلعه بعد عامين لأنه قد هجر كرسيه الأصل في أدرنة . ثم اختير للبطريركية يوسف من جلازيا ، الذي كان من رجالات القصر . ولقد وافق يوسف على إصدار قرار بالغفران لميخائيل الثامن بشرطين : أن يوقع الأمبراطور على مرسوم يخول لقرارات البطريرك نفس الصلاحيات التي تتمتع بها المراسيم الأمبراطورية ، وأن يظهر الأمبراطور الندم والتوبة علانية عن فعلته الشائنة ضد يوحنا الرابع الأمبراطور الطفل . وبالفعل كفل ميخائيل الثامن معاشا سخيا ليوحنا الرابع « الضرير لآن » ، ثم ظهر على مرأى من الشعب في ثياب الندم ، عاري الرأس ، رافع اليدين إلى فوق ، راكعا أمام الرحمة البطريركية ، يطلب الصفح والغفران . ونال الأمبراطور غفرانا ، وخرج البطريرك الجديد منتصراً .

رغم ذلك الانتصار للبطريركية وتلك المذلة لشخص الأمبراطور ، إلا أن

تلاميذ مدرسة أرسنيوس ظلوا غاضبين . ذلك أن رهبان الصوامع وقمم الجبال لم يغفروا للأمبراطور إثمه ولا للبطريرك الجديد أنه مد يده ليد ملوثة ، واتهموا الأخير بأنه ربيب القصر ومترف ولديه نزوع للآداب الوثنية . أما ارسنيوس فقد رأوا فيه البطل والشهيد الذي تصدى للأمبراطور دفاعا عن الحق دون خشية . وقد انضم تحت لواء هؤلاء الرهبان نفر غير قليل من كبار رجال الدين، الذين كانوا شديدي الإعجاب بالذكريات الحوالي الديرانية ستوديون العتيدة التي كانت دوما الصخرة التي تحطم عليها جبروت التاج . وعلى هذا فإن أتباع أرسنيوس – الأرسنيويين – لم يقبلوا موقف يوسف البطريرك الجديد ، واعتبروه مجرد أداة للقصر وسيده ميخائيل الثامن .

وقد قوبلت الأرسنيوية باضطهاد شديد في العاصمة ، فاتخذت الحركة مسارا تحتيا ، وشهدت البلاد المشاءين من أصحاب العباءات المهلهلة من قماش الجيش (ساكوفوري) يبشرون بضرورة مقاومة الإثم .

وكان من الممكن لميخائيل الثامن أن يقمع تلك الحركة لولا تلك المفاوضات التي كان قد فتحها مع البابوية والتي وافق خلالها على ضم كنيسة بيزنطة إلى الكنيسة الرومانية . وتفصيل ذلك أنه عندما ازداد خطر شارلس من آنجو ، ملك صقلية ، على الأراضي البيزنطية ، توسل ميخائيل الثامن إلى البابا جريجوري العاشر أن يستخدم نفوذه لكبح جماح شارلس . واشترط البابا مقابل القيام بهذا الدور أن يوافق ميخائيل الثامن على « رد جميع الامتيازات التي كانت للبابوية قبل وقوع الشقاق » الديني بين روما وبيزنطة سنة ١٠٥٤ م . وفي رسالته إلى الأمبراطور أصر جريجوري العاشر على ضرورة « إزالة الشوائب (الزوان) والخلافات التي تشوب ما بين البيزنطيين واللاتين [٧٨] . وكان على ميخائيل

(78) Guiraud, reg. Greg. X, No. 194 : « ad premissa solide reboranda commodius et ad tractandam caritatis inter ipsos Latinos et Grecos, radicibus zizaniarum evulsis omnibusque discordiis... sedatis, inviolabiliter solidande tanto efficicius tanto fevorabilibus intendemus. »

الثامن أن يؤكد صدق النية والرغبة في وحدة الكنيستين والاعتراف بسلطان البابا وإمرته أمام مندوبي البابا الذين أوفدوا إلى القسطنطينية (٧٩) .

وفي سنة ١٢٧٤ انعقد مؤتمر ليون الثاني ، وأرسل ميخائيل الثامن وفداً رسميا للمشاركة في أعمال هذا المؤتمر ولإعلان خضوع كنيسة بيزنطة لكنيسة روما والتزام البيزنطيين بحرفية قانون الإيمان الروماني . وكانت السفارة مؤلفة من جورج أكروبوليتـــا والبطريرك جرمانوس الثالث وثيوفانيس ومطران نيقيا . وفي المؤتمر سلم الوفد الرسائل الأمبراطورية التي احتوت « الاعتراف بقداستكم (البابا) رأسا على سائر الكنائس ، وتفويض قداستكم في الفصل في أمور الكنيستين وفقا لقوانين الكنيسة الرومانية (٨٠) وبعد ذلك الإعلان الذليل بخمسة أيام أقيم قداس لاتيني حضره جميع أعضاء المجمع ، وتلوا قانون الايمان باللغة اليونانية في صيغته وحرفيته الرومانية ، أي باضافة عبارة الـــ (Filioque) التي طالما رفضتها بيزنطة في عناد وإصرار شديدين . ويروى أنه عند تلاوة تلك الفقرة زمّ مطران نيقيا بشفتيه وعض عليهما بشدة (٨١) .

ظل ميخائيل الثامن باليولوغوس مخلصا لقرار الاتحاد الذي اتخذه مجمع

---

(79) Ibid. : « licet ab exordio indictionis huius (Concilii) ad magnificentiam tuam libertas et nuntios disposuerimus destinare, ipsorum fratrum nostrorum tamen consultu suspendimus missionem. »

(80) « Omnes autem perogativas et privilegia, que antiquitus pertinebant tue sanctitati, que et ante scisma ipsi dedicata fuerunt, reddi huic omnibus precepimus, scilicet prinum et summum portificem et caput omnium ecclesiarum tuam sanctitatem esse apud omnes et nominari, et lites ecclesiastices ad ipsam referri, ut utique accipiant hec directionem secundum ecclesiasticam et canonicam ordinationem et constitutionem. »

(81) C.J. Hefele, Histoire des Conciles, VI, pp. 153 ff.

ليون الثاني (٨٢) طيلة حياته . ولكن ميخائيل لم يكن يملك أن يفرض هذا القرار على الكنيسة البيزنطية ، التي لم يكن يمثلها في ذلك المجمع من يرضى عنه الشعب أو رجال الدين البيزنطيون . فالمعروف أن جرمانوس الثالث كان قد عزل من منصبه كبطريرك ثم أعاده ميخائيل الثامن لعرش البطريركية ليستخدمه في المشاركة في مؤتمر ليون . والشخص الوحيد الذي ظل مخلصاً إلى جانب الأمبراطور لقرارات مجمع ليون هو السكرتير الأمبراطوري جورج أكربوليتا . ويبدو أنه كان متأثرا بشخصية صديقه الحميم الراهب الفرنسيسكاني يوحنا براسترون ، الذي كان من أصل يوناني والذي كان يتمتع باعجاب بالغ في دوائر القسطنطينية .

أما الشعب البيزنطي ورجال الدين جميعا فقد كانوا ساخطين على مجمع ليون كل السخط . وبعد وفاة البابا جريجوري العاشر اعتلى العرش البابوي فرنسي متعصب هو مارتن الرابع الذي ألقى بكل ثقله مع شارلس من آنجو ضد ميخائيل الثامن ، متجاهلاً ما كان الأمبراطور البيزنطي قد تجشمه من متاعب ومعارضة في بلاده بسبب مشاركته في مجمع ليون . ولذا فإن رجال الدين البيزنطيين عقدوا مجلسا في حماية حكام ابيروس وأنزلوا قراراً بالحرمان على كل من الأمبراطور وجرمانوس الثالث .

وهنا لا بد من التأكيد بأن التقليد عند البيزنطيين أن أي مجمع كنسي . حتى ولو تم انعقاده بواسطة الأمبراطور أو الأمبراطور والبابا ، لا يمكن اعتباره « مجمعاً مسكونياً » ملزما إلا إذا شارك فيه البطاركة الأربعة للشرق سواء بأشخاصهم أو عن طريق مندوبيهم . ولذا فإنه كان مستحيلا على ميخائيل الثامن أن يجبر شعبه على الاعتراف بالمجمع الذي عقد في ليون ، الذي رأى فيه البيزنطيون صورة جديدة لمجمع اخيسوس الثاني (القرن الخامس) ، فدمغوه

---

(٨٢) أنظر النص الكامل لمجمع ليون في (الملاحق) .

مثلما دمغوا الأول باسم « مجمع اللصوص » .

ولقد قرر الراهب برلعام (Barlaam) من كلابريا وجهة النظر البيزنطية تلك للبابوات في آفنيون سنة ١٣٣٩ بقوله : « إن المندوبين البيزنطيين الذين شاركوا في مجمع ليون لم يكونوا مفوضين من البطاركة الأربعة للمشرق ولا من قبل الشعب ، وإنما هم قد أتوا بأمر من شخص واحد هو ميخائيل الثامن الذي كان مصرا على الوحدة مع كنيسة روما بأي ثمن » (٨٣) .

(83) M.P.G., vol. 151, cals. 1332 ff.

الفصل السابع

نهاية قصة طويلة

توفي ميخائيل الثامن باليولوغوس سنة ١٢٨٢ بعد أن أعاد للبيزنطيين عاصمتهم وكرامتهم ، وخلفه على العرش إبنه اندروينكوس الثاني الذي لم يكن على شاكلة أبيه الراحل ؛ إذ كان مفتونا بأفانين السحر والشعوذة ، كما أنه كان شديد التدين ولكأنه في هذا الخصوص واحد من النساك . ولم تكن بيزنطة في حاجة إلى ناسك على عرش البوسفور لأن الحاجة كانت ماسة إلى جندي فذ . ولقد طالت مدة حكم اندرونيكوس حتى بلغت ستة وأربعين عاما ، شهدت خلالها بيزنطة أحداثا خطيرة عجلت بسقوطها النهائي .

ففي سنة ١٣٠٣ إستعان اندرونيكوس الثاني بفرقة من الجند المرتزقة من القطلان (نسبة إلى قطالونيا) ، وهؤلاء كانوا قد عاونوا بيت أرغون الأسباني على بيت آنجو الفرنسي في السيطرة على صقلية . ولكن فردريك الأول ملك صقلية الأرغوني بات يخشى بأس هؤلاء الجند الغلاظ الطبع بعد أن قويت شوكتهم ، فبعث بهم لكي يساعدوا بيزنطة ضد أعدائها ، ولكي يتخلص من مشاكلهم في نفس الوقت (*) . وكان على رأس القطلان قائد مغامر اسمه

(*) See Miller, W. the Catalans et Athens; Rubioy Lluch. Los Catalanes en Grecia.

روجر دى فلور الذي وضع نفسه ورجاله في خدمة اندرونيكوس . ولكن الأمبراطور لم يحسن استغلال هذه القوة المرتزقة وإنما ضيع قيمتها في عمليات عسكرية تافهة لا هدف من ورائها . وركن القطلان إلى الخمول فتأخرت عنهم رواتبهم ولذلك قاموا بالتمرد على اندرونيكوس ، الذي دبر مؤامرة دنيئة تم فيها اغتيال روجر . وجن جنون القطلان وانقضوا على الجيش البيزنطي وأوقعوا به الهزيمة ، ثم راحوا يغيرون على القرى والمدن البيزنطية لينهبوها . وظـل القطلان شوكة في جنب الدولة البيزنطية إلى أن تخلصت من عنائهم سنة ١٣١٠ عندما دخلوا في خدمة دوق آثينا الفرنجي .

كذلك شهدت السني الأخيرة من حكم أندرونيكوس الثاني قيام حرب أهلية بينه وبين حفيده وسميه اندرونيكوس الأصغر ، الذي تمرد ضد جده سنة ١٣٢١ طمعاً في أن يحكم امبراطوراً بعد أن توفي والده . وانتهى الصراع سنة ١٣٢٨ بانتصار الحفيد على الجد واقتيد الأخير إلى الدير حيث ألبس المسوح الديرانية (*) . لقد جرت تلك الحرب الأهلية وبالاً شديداً على الدولة البيزنطية ، فأوهنت قوتها وصرفتها عن مواجهة خطر داهم جديد هو الزحف العثماني : نجح الأتراك العثمانيون قبل وفاة زعيمهم عثمان بن أرطغرل في الاستيلاء على مدينة بروسة البيزنطية سنة ١٣٢٦ ، وأضحت هذه المدينة العاصمة الآسيوية للعثمانيين . ولما جاء السلطان أورخان بن عثمان إلى الحكم مد نفوذ العثمانيين بعد أن أوقع الهزيمة بالجيش البيزنطي سنة ١٣٢٩ في موقعة بلكانون . وبعدها بعام واحد سقطت نيقيا في أيدي العثمانيين ، وتغلغل النفوذ العثماني حتى دانت لأورخان كل أراضي آسيا الصغرى فيما عدا مدينتي فوكيه وفيلادلفيا وشريط ضيق على طول الساحل الشرقي للبوسفور .

توفي أندرونيكوس الثالث سنة ١٣٤١ فخلفه في الحكم ابنه يوحنا الخامس تحت وصاية والدته آن من ساڤوى . وسرعان ما دب الخلاف بين آن وبين

(*) See Pachymeres, George, De Andronico Palaeologo (CSHB), ed. Bekker.

وزيرها يوحنا كنتاكيوزينوس ، وراح كل طرف يستنجد بالعثمانيين للاحتفاظ بالسلطة . ونجح الوزير في كسب معونة السلطان أورخان بعد أن زوجه من ابنة ابنة لـــــه زفت إلى بلاط بورسه لتنضم هنالك إلى حريم السلطان . واعتلى كنتاكيوزينوس العرش البيزنطي شريكا في الحكم ليوحنا الخامس سنـــة ١٣٤٧ ، بعد أن زوج ابنة أخرى له اسمها هيلين ليوحنا . وتم تتويـــج كنتاكيوزينوس وزوجته ويوحنا وزوجته أباطرة في حفل واحد ، وبذلك صار يحكم بيزنطة ، ولأول مرة ، خمسة أباطرة في آن واحد وهم كنتاكيوزينوس ويوحنا الخامس وزوجتاهما ثم الأمبراطورة الأم آن من سافوى . إن هـــذا التكالب على العرش هو الذي حفز القوى المجاورة في البلقان وعلى رأسهـــا مملكة الصرب على التربص لبيزنطة للانقضاض عليها وسلخ أراضيها في البلقان . وقد حققت الصرب هذه الغايات في عهد ملكها القوي ستيفن دوشان (١٣٣٣) الذي نجح في الاستيلاء على ألبانيا وابيروس وتساليا ، فصار بذلك سيدا على الأراضي الممتدة من البحر الأدرياتي إلى بحر إيجة . ثم تلقب دوشان بلقب « أمبراطور رومانيا وسلافونيا وألبانيا » ، وأخذ يرنو ببصره نحو تـــــاج القسطنطينية ، ولكن الموت فأجأه سنة ١٣٥٥ ، وبموته أخذت قوة الصرب في التدهور والانهيـــار

في أثناء ذلك كانت الحرب الأهلية قد اندلعت من جديد في بيزنطة بين كنتاكيوزينوس ويوحنا الخامس ، واستنجد كل فريق هذه المرة بجمهوريتي جنوة والبندقية ، فانحازت الأولى إلى جانب يوحنا الخامس والثانية إلى معسكر كنتاكيوزينوس . ودارت معركة بحرية بين الجمهوريتين الايطاليتين بالقرب من العاصمة في سنة ١٣٥٢ ، وانتهت بانتصار جنوة على البندقية ، وبالتالي فاز يوحنا على كنتاكيوزينوس ، وأجبر الأخير على التخلي عن العرش وزج به في أحد الأديرة سنة ١٣٥٤ . وقد سجل لنا كنتاكيوزينوس تاريخ حياته وأحوال عصره أثناء إقامته في الحياة الديرانية .

استغل العثمانيون الفرصة وزحف سليمان الابن الأكبر للسلطان أورخان على موقع جاليبولي واستولى عليه وحصنه بحامية تركية تسهر على الحفاظ عليه ؛ وكانت جاليبولي أول أرض أوربية يستولي عليها العثمانيون (١٣٥٤) (*) . توفي سليمان سنة ١٣٥٨ قبل وفاة والده أورخان بعام واحد وفي سنة ١٣٥٩ ؛ وآل العرش العثماني للسلطان مراد الأول الذي نجح في سنة ١٣٦١ في غزو مدينة أدريانوبل (أدرنة) التي صارت العاصمة العثمانية في أوربا لمدة تقرب من القرن . إن هذا التوسع التركي على حساب الأراضي والمصالح البيزنطية لا يعود إلى مقدرة العثمانيين بقدر ما يرجع إلى تمزق البيزنطيين وتآمر حكامهم الواحد ضد الآخر إلى حد تشجيعهم للقوى المعادية لهم على غزو بعض الأراضي البيزنطية . وهكذا فإنه لا بد من تقرير حقيقة أن الأطماع الشخصية لدى أمراء بيت باليولوغوس المتأخرين قد قتلت فيهم أي احساس نبيل بالوطنية أو الصالح العام للدولة .

كان الاستيلاء على أدريانوبل مؤشرا ذا دلالة واضحة على مخطط عثماني ضد الممالك السلافية في البلقان وهي بلغاريا والصرب والبوسنية . وقد نجح العثمانيون بالتدريج في تطويق أراضي هذه الممالك الواحدة بعد الأخرى . وهكذا فإن بيزنطة باتت محاصرة من الشرق والغرب بالجيوش العثمانية ، واستفحل الخطر . راح يوحنا الخامس يتوسل إلى الغرب اللاتيني وعلى رأسه البـــابا ، طلباً في المساعدة لإنقاذ بيزنطة ، وفي سنة ١٣٦٩ قام بزيارة إلى روما وقابل البابا أوربان الخامس وأعلن خضوع الكنيسة البيزنطية لكنيسة روما وكذا أقر التزام بيزنطة بقانون الإيمان الكاثوليكي وبالطقوس الرومانية . ووعدته البابوية بالعون ، ولكن واقع الأمر يؤكد أن البابوية في ذلك الحين من القرن الرابع عشر لم تعد صاحبة نفوذ يذكر على بلدان غرب أوربا ، فلم تعد هنالك آذان

(*) See Gibbons, H.A. The Foundation of the Ottomen Empire; Koprulu, M.F. Les origines de l'Empire Ottoman; Langer, EL., The Rise of the Ottoman Turks and its historical background (AHR-37).

تستعذب النغمة الصليبية القديمة . وهكذا فإن رحلة يوحنا الخامس إلى روما انتهت بخيبة أمل مريرة ، كان أهم نتائجها تعميق الخلاف بين الأمبراطور البيزنطي وشعبه بسبب إعلاناته المهينة على حساب التراث المسكوني للكنيسة البيزنطية . ولم يجد يوحنا الخامس بدأً من أن يدخل طواعية تابعاً وفصلاً لسيادة السلطان العثماني ، بل إنه سلم له سالونكا أيضاً . وبلغت المذلة بالبيت البيزنطي حدها الأكبر عندما تمرد ابن ليوحنا اسمه اندرونيكوس، فسارع الأب يستنجد بالعثمانيين لدرء خطر الإبن عليه . وكان الثمن باهظاً ، إذ وقع يوحنا الخامس على معاهدة مهينة سنة ١٣٨١ وافق بمقتضاها أن يدفع الجزية سنوياً للسلطان .

بعد أن أثبتت بيزنطة عجزها الكامل عن الاضطلاع بدورها في آسيا الصغرى والبلقان ، أقامت الدول السلافية عصبة فيما بينها للتصدي للخطر العثماني . وكان على رأس العصبة ملك البوسنية . ولكن العثمانيين بقيادة السلطان مراد زحفوا على الجيوش السلافونية وأنزلوا بها هزيمة ساحقة سنة ١٣٨٩ في موقعة كوسوفا ، وفيها سقط ملك الصرب صريعا ومن حوله خيرة الجند والضباط . على أن واحداً من نبلاء الصرب تظاهر بالانضمام إلى معسكر السلطان مراد ثم قام باغتياله ، انتقاماً لمقتل مليكه . ثم جاء السلطان بايزيد خلفا لوالده مراد ، واضطر ملك الصرب الجديد على أن يزف شقيقته عروساً لبايزيد مع التعهد بدفع الجزية سنويا والمساهمة في الخدمة العسكرية في صفوف جند السلطان .

وسرعان ما حل بولاشيا وبلغاريا نفس المصير الذي حل بالصرب .

جاء رد الفعل هذه المرة من جانب سجسموند ملك المجر تعاونه حملة صليبية فرنجية بقيادة جان دى نيفيرز الملقب « بالجسور » ؛ وريث دوقية برغنديا . ولكن السلطان بايزيد انقض على الصليبيين والماجيار وأوقع بهم هزيمة نكراء في موقعة نيكوبولس سنة ١٣٩٦ ، وفيها أبيدت قوة الحملة ولم

ينج من فرسان الفرنجة سوى أربعة وعشرون رجلاً ، فروا إلى الغرب ليقصوا على ذويهم روايات خيالية عن شجاعة العثمانيين وقسوتهم .

توفي الأمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس سنة ١٣٩١ وخلفه على العرش ابنه مانويل الثاني ، الذي كان عليه أن يقود فرقة بيزنطية ليسير بها وراء السلطان بايزيد في آسيا الصغرى ليساعده في الاستيلاء على آخر مدينة بيزنطية فيها ألا وهي فيلادلفيا ! وفي سنة ١٣٩٧ كان السلطان بايزيد قد نجح في ضم ابيروس وتساليا إلى أملاك الأمبراطورية العثمانية . ودقت نواقيس الخطر في مدينة أياصوفيا. وهنا اضطر مانويل الثاني إلى السفر إلى غرب أوربا ليتوسل إلى الملوك والبابا لكي يساعدوه في محنة بيزنطة الكبرى (*) . وفي أثناء غياب مانويل في الغرب قام بايزيد بضرب حصار حول القسطنطينية وكادت المدينة أن تسقط في يده ، لولا أن الأنباء قد جاءت عن زحف مغولي مدمر تحت قيادة الزعيم الجبار تيمورلنك . رفع بايزيد الحصار عن القسطنطينية وأعد العدة لملاقاة المغول ، ودارت معركة رهيبة بين العثمانيين والتتار (المغول) عند انقوره سنة ١٤٠٢ ، وانتصر تيمورلنك ووقع بايزيد أسيراً وظل في الأسر حتى مات في سنة ١٤٠٣ .

إن تيمورلنك هو الذي مدّ في عمر بيزنطة الخمسين عاماً الباقية على سقوطها النهائي ، لأنه لم يكن هنالك من يمنع بايزيد عن غزوها سنة ١٤٠٣ سواء في في البلقان أو في الغرب الأوربي .

عندما عاد مانويل الثاني من رحلته الفاشلة في غرب أوربا وجد سيداً جديداً على آسيا الكبرى والصغرى ، فاضطر إلى أن يدفع الجزية التي كانت تذهب إلى السلطان العثماني إلى تيمورلنك . على أن الأحداث في الشرق الأقصى اضطرت

(*) See Schlumberger, G. « Un Empereur de Byzance à Paris et à Londres, Revue des Deux Mondes XXX (1915).

تيمورلنك إلى أن يترك مسرح الأحداث في آسيا الصغرى ، ويعود إلى بلاده ، وقد هلك سنة ١٤٠٥ وهو يحاول غزو الصين .

كانت الضربة التي أنزلها تيمورلنك بالعثمانيين ضربة فادحة ، فلقد شلت فاعليتهم وأتاحت الفرصة للإمارات السلجوقية لكي تظهر من جديد ، كما وأن الفتنة قد دبت بين أبناء بايزيد الأربعة في صراع على الحكم . واستمر فعل ضربة تيمورلنك سنينا عشرة إلى أن نجح محمد الأول في لم شمل امبراطورية آبائه وفي اخضاع الإمارات السلجوقية من جديد سنة ١٤١٣ . وبعد وفاة السلطان محمد خلفه ابنه مراد الثاني في الحكم . وقد حدث أن حاول الأمبراطور البيزنطي مانويل الثاني أن يؤيد ابنا لبايزيد في مطالبته بالعرش العثماني ضد مراد . ولكن السلطان قتل غريمه ، ثم انقلب وضرب حصاراً حول القسطنطينية ليرهب مانويل . غير أن السلطان اضطر إلى رفع الحصار عن المدينة لأن واحداً من إخوته الأمراء قد شق عليه عصا الطاعة . ولما أن هدأت الأمور واستقرت للسلطان مراد ، قاد حملة نحو أوربا سنة ١٤٢٤ ، واضطر مانويل إلى أن يقدم له الجزية مضاعفة إلى جانب التنازل له عن عدة مدن في تراقيا .

في سنة ١٤٢٥ اعتلى العرش البيزنطي ابن لمانويل هو يوحنا السادس وهو أضعف أبناء بيت باليولوغوس . وقد شهد حكمه محاولة ثالثة للمصالحة بين الكنيستين البيزنطية والرومانية في مجمعي فرارا سنة ١٤٣٨ وفلورنسا سنة ١٤٣٩ . وتم التوقيع في فلورنسا على وثيقة الاتحاد ، ولكن الشعب البيزنطي أظهر سخطاً شديداً على يوحنا فاضطر إلى التراجع وإلى إعلان بطلان الوثائق التي وقع عليها في فلورنسا .

في أثناء ذلك اعتلى عرش الصرب ملك اسمه جورج الذي قرر أن يلقي القفاز في وجه السلطان العثماني . وسرت موجة الحماس بين شعوب الولاش والبوسنية ، ثم عقد جورج حلفا مع سجسموند ملك المجر بعد أن تنازل له عن

قلعة بلغراد الواقعة على حدود المملكتين . ولكن السلطان فاجىء القوى المتحالفة وضرب حصاراً حول سمندرية (١٤٣٨) . وفي أثناء الحصار توفي سجسموند فخلفه على العرش ألبرت النمساوي الذي حاول مقاومة الحصار ولكن دون جدوى . وسقطت المدينة وانتشر الوباء في معسكرات الطرفين ، وكان البرت من بين ضحايا الدوسنطاريا الوبائية .

في سنة ١٤٤٠ قدم نبلاء المجر تاج مملكتهم للعاهل البولندي لادزلاس ، وتمكن السلاف والماجيار تحت قيادة لادزلاس من التصدي بشجاعة لقوات الانكشارية العثمانية ، كما أنهم أحرزوا بعض النجاح على مدار سنوات أربع متتالية إلى حد أنهم أوقعوا الهزيمة بالجيش العثماني عند أسوار هرمان شتات (Hermanstadt) سنة ١٤٤٢ وعند نيسا (Nissa) في نفس العام . واضطر السلطان مراد الثاني إلى توقيع معاهدة سلام مع أعدائه عرفت باسم معاهدة زغدين (Szegedin) في ١٢ يوليو ١٤٤٤ ، وبمؤداها رفع السلطان وصايته عن الصرب والبوسنية ، وسمح للولاشيا بالانضمام إلى مملكة المجر .

كانت هذه النتائج العسكرية مخيبة لآمال السلطان مراد الثاني ، فاعتراه الهم وقرر التنارل من الحكم لابنه محمد ، واعتزل حياة السياسة إلى بلدة ماغنيزيا . وفسرت القوى البلقانية هذا الانزواء من جانب مراد الثاني على أنه علامة الأفول لنجم العثمانيين ، فتشجعت وقررت خرق معاهدة السلام . وأرسل البابا يوجين الرابع مندوبيه إلى لادزلاس لمباركةالحملة المرتقبة ضد العثمانيين. وعبر الجيش المجري نهر الدانوب إلى بلغاريا ميمما شطر ساحل البحر الأسود ثم استولى على مدينة ڤارنا . غير أن خرق المعاهدة مع العثمانيين بهذا الشكل كان غدراً من جانب لادزلاس ، فثار السلطان مراد الثاني وتحرك من خلوته وجمع رجاله وسار إلى ميدان القتال . وفي ١٠ نوفمبر ١٤٤٤ التقى المعسكران عند ڤارنا ودارت معركة رهيبة هلك فيها الآلاف من جيش المجر وعلى رأسهم ملكهم لادزلاس ، وأذلت في ذات اليوم ممالك البوسنية والصرب أيضاً .

وبعد هذا النصر الرائع اعتزل مراد الثاني ثانية إلى ماغنيزيا . إلا أن القلاقل التي ظهرت في ألبانيا بعد ذلك بزعامة مجاهد اسمه جورج كاستريوت قد اضطرت السلطان مراد الثاني إلى الخروج عن عزلته مرة أخرى . كان جورج من أهل الجبل ، وكان عارفاً باستراتيجيات القتال عند العثمانيين ، فألف عصابات جبلية راحت تشن إغارات جسورة على معسكرات العثمانيين لمدة زادت على العشرين عاماً .

وفي أثناء هذا الصراع توفي السلطان مراد الثاني وخلفه ابنه محمد الثاني الذي لقبه التاريخ بلقب « الفاتح » . أمضى السلطان الجديد عام ١٤٥٢ في الاعداد لحصار القسطنطينية ، فشيد قلعة على البوسفور ، واستعان بخبرة مهندسين أجانب في تصنيع المدافع الثقيلة لدك أسوار القسطنطينية ، كما أنه جمع عدداً وافراً من الجند وكميات هائلة من المؤن والذخيرة من مختلف أراضي الأمبراطورية التي كانت يتربع على عرشها . وكان الجالس على عرش بيزنطة في ذلك الوقت قسطنطين الحادي عشر الذي خلف أخاه يوحنا السادس منذ ١٤٤٨. وكان قسطنطين مدركا لخطورة موقفه وللمحنة التي تنتظر بيزنطة ، فسارع بالاعتراف بقرارات مجمع فلورنسا الكنسي لكي يكسب عطف البابوية وقوى الغرب اللاتيني على قضية بلاده ، بل إنه احتفل بتلك المناسبة احتفالاً دينياً كبيراً في أياصوفيا . هذه السياسة الكنسية من جانب قسطنطين لم تؤد إلا إلى ازدياد سخط البيزنطيين عليه ، ولذا فإنهم اتخذوا موقفا سلبيا ولم يرتفع البيزنطيون إلى مستوى الشعور بتحديات ذلك الظرف ولم يأخذوا بيد قسطنطينهم ليساعد في انقاذهم من الهلاك والعار . وراح أهل المدينة يضيعون وقتهم وجهدهم في جدل عقيم حول الهرطقة والأرثوذكسية والكاثوليكية ، وهو نفس الجدل الذي طالما جر الكوارث على الدولة البيزنطية منذ مجمعها المسكوني الأول سنة ٣٢٥ .

وانتظر قسطنطين الحادي عشر آملاً أن يأتي العون من لدن الغرب اللاتيني والبابا ، ولكن أحداً لم يتحرك ، فقد كانت الحرب طاحنة بين فرنسا وانجلترا : وكان فيليب دوق برغنديا يقاتل لتوسيع أملاكه في الأراضي

الواطئة ، وكانت ألمانيا منصرفة إلى معالجة مشكلاتها الداخلية المعقدة ؛ فلم يكن في مقدور الأمبراطور الروماني المقدس فردريك الثالث أن يسيطر حتى على مقاطعته التي ورثها عن آبائه . أما عن قوى البلقان فقد انهارت بعد مصرع لادزلاس ، واعتراها الرعب من العثمانيين بعد يوم فارنا .

واكتملت خطة محمد الثاني ، وبات مؤكدا لدى سفير البندقيـــة في القسطنطينية « أن « رجل أوربا المريض » ساقط لا محالة فخاطب جمهوريته للعمل على ضم بيزنطة إليها بدلاً من وقوعها في أيدي العثمانيين ! ! وتجمعت أساطيل البندقية وجنوة وأخذ المرتزقة القطلان على عاتقهم حمايـــة أسوار القسطنطينية .

بدأ محمد الثاني حصاره للمدينة في ربيع ١٤٥٣ ، ونجح أسطول جنوة في صد الأسطول العثماني ، ولكن السلطان كان قد أعد عدته فركزت المدفعية قذائفها على الأسوار . وفي ٢٩ مايو ١٤٥٣ بعد صراع يائس نجح الانكشارية في اقتحام أسوار القسطنطينية من ثغرة فتحتها نيران المدفعية الثقيلة . ولقد قاتل قسطنطين الحادي عشر قتال الأبطال وسقط في ميدان المعركة حول الأسوار ، فشرف بدمه اسمه واسم مؤسس المدينة في ذلك اليوم الرهيب . ولكن شعب العاصمة كان متبلداً ولكأنه غير واع لما يدور أمام أعينهم من أحداث جسام ، بسبب خلافهم مع قسطنطين حول مجمع فلورنسا . ولقد سمعت بالفعل أصوات بيزنطية في ذلك اليوم تقول « إنه لأخير لبيزنطة أن تحكمها العمائم العثمانية الخضر من أن تذلها القبعة البابوية » .

ودخل محمد الفاتح مدينة قسطنطين في موكب مهيب وطوى بسيفه وبمدفعه قصة طويلة من التاريخ (*) . على أنه ينبغي علينا أن نقرر في ختام القول بأن الغرب اللاتيني هو الذي مهد لنهاية بيزنطة منذ بداية الحركة الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر ، ثم كتب البيزنطيون بأيديهم الفصل الأخير من مأساة سقوطهم .

(*) See Schlumberger, G. le siège, la prise et le sac de Constantinople par les Turcs en 1453.

مَلاحِق

Conc. Lugdunense II 1274.

Oecumenicum XIV (de unione Graecorum)

Constitutio de processione Spiritus Sancti (1)

(De summa Trinitate et fide catholica)

Fideli ac devota professione fatemur, quod Spiritus Sanctus aeternaliter ex Patre et Filio, non tanquam ex duobus prncipiis, sed tanquam ex uno principio, non duabus, spiratonibus, sed unica spiratione procedit : hoc professa est hactenus, praedicavit et docuit, hoc firmiter tenet, praedicat, profitetur et docet sacrosancta Romana Ecclesia, mater omnium fidelium et magistra : hoc habet orthodoxorum Patrum atque Doctorum, Latinorum pariter et Graecorum incommutabilis et vera sententia. Sed quia nonulli propter irrefragablis praemissae varitatis ignorantiam in errores varios sunt prolapsi : Nos huiusmodi erroribus viam praecludere cupientes, sacro approbante Concilio, damnamus et reprobamus, qui negare praesumpserint, aeternaliter Spiritum Sanctum ex Patre et Filio procedere : sive etiam temerario ausu asserere, quod Spiritus Sanctus ex Patre et Filio, tanquam ex duobus principiis, et tanquam ex uno, procedat.

---

(1) Mansi, Joann. Dominici, Sacrorum Conciliorum nova et amplissima callectio. Tomus I. Florentiae 1759 599 (postea Parisiis, Lipsiae). XXIV 81 B.

Professio fidei Michaelis Palaeologi (2)

Credimus sanctam Trinitatem, Patrem et Filium et Spiritum Sanctum, unum Deum omnipotentem totamque in Trinitate deitatem coessentialem et consubstantialem, coaeternam, et coomnipotentem, unius voluntatis, potestatis et maiestatis, creatorem omnium creaturarum, a quo omnia, in quo omnia, per quem omnia, que sunt in coelo et in terra, visibilia, invsibilia, corporalia et spiritualia. Credimus singulam quamque ni Trinitate personam unum verum Deum, plenum et perfectum.

Credimus ipsum Filium Dei, Verbum Dei, aeternaliter natum de Patre, consubstantialem, coomnipotentem et aequalem per omnia Patri in divinitate, temporaliter natum de Spiritu Sancto et Maria semper virgine, cum anima rationali; duas habentem nativitates, unam ex Patre nativitatem aeternam, alteram ex matre temporalem : Deum verum et hominem verum, proprium in utraque natura atque perfectum, non adoptivum, nec phantasticum, sed unum et unicum Filium Dei, in duabus et ex duabus naturis, divina scilicet et humana, in unius personae singularitate, impassibilem et immortalem divinitate, sed in humanitate pro nobis et salute nostra passum vera carnis passione, mortuum et sepultum, et descendisse ad inferos, ac tertia die resurrexisse a mortuis vera carnis resurrectione : die quadragesima post resurrectionem cum carne, qua resurrexit, et anima ascendisse in coelum, et sedere ad dextram Dei Patris, inde venturum indicare vivos et mortuos, et redditurum unicuique secundum opera sua, sive bona fuerint sive mala.

Credimus et Spiritum Sanctum, plenum et perfectum verumque Deum ex Patre *Filioque* procedentem, coaequalem et consubstantialem et coomnipotentem et coaeternum per omnia Patri et Filio. Credimus hanc sanctam Trinitatem non tres Deos, sed unicum Deum omnipotentem, aeternum et invisiblem et incommutabilem.

---

(2) Mansi, op. cit., XXIV, 70 A sq; Harduini, P. Ioannis, S. J., Conciliorum Collectio regia maxima (Lobbei et Cossartii) sive : Acta Conciliorum et Epistolae Decretales ac Constitutiones Summorum Pontificum. Parisiis 1715, VII, 694 C S99; Baronius, Caesaris S. R. E. Card., Annales Ecclesiastici, ed. Aug. Theiner, ad 1274 n. 19 (22, 329 a).

Credimus sanctam catholicam et apostolicam unam esse veram Ecclesiam, in qua unum datur sanctum baptisma et vera omnium remissio peccatorum. Credimus etiam veram resurrectionem huius carnis, quam nunc gestamus et vitam aeternam. Credimus etiam Novi et Veters Testamenti, Legis, ac Prophetarum et Apostolorum, unum esse auctorem Deum ac Dominum omnipotentem. Haec est vera fides catholica, et hanc in supradictis articulis tenet et proedicat sacrosancta Romana Ecclesia. Sed propter diversos errores, a quibusdam ex ignorantia et tab aliis ex malitia introductos, dicit et praecidcat, eos, qui post baptismum in peccata labuntur, non rebaptizandos, sed per veram poenitentiam suorum consequi veniam peccatorum. Quod si vere poenitentes in caritate decesserint, antequam dignis poenitentiae fructibus de commissis satisfecerint et omissis : eorum animas poenis purgatoriis seu catharteriis, sicut nobis frater Ioannes explanavit, post mortem purgari : et ad poenas huiusmodi relevandas prodesse eis fidelium vivorum suffragia, Missarum scilicet sacrificia, orationes et eleemosynas et alia pietatis officia, que a fidelibus pro aliis fidelibus fieri consueverunt secundum Ecclesiae instituta. Illorum autem animas, qui post sacrum baptisma susceptum nullam omnino peccati maculam incurrerunt, illas etiam, que post contractam peccati maculam, vel in suis manentes corporibus, vel eisdem exutae, prout superius dictum est, sunt purgatae, mox in coelum recipi. Illorum autem animas, qui in mortali peccato vel cum solo originali decedunt, mox in infernum descendere, poenis tamen disparibus puniendas. Eadem sacrosancta Ecclesia Romana firmiter credit et firmiter asseverat, quod nihilominus in die iudicii omnes homines ante tribunal Christi cum suis corporibus comparebunt, reddituri de propriis factis rationem.

Tenet etiam et docet eadem sancta Romana Ecclesia septem esse ecclesiastica sacramenta, unum scilicet baptisma, de quo dictum est supra; aliud est sacramentum confirmationis, quod per manuum impositionem episcopi conferunt, chrismando renatos; aliud est poenitentia, aliud sacramentum ordinis, aliud est matrimonium, aliud extrema unctio, quae secundum doctrinam beati Iacobi infirmantibus adhibetur. Sacramentum Eucharistiae ex azymo conficit eadem Romana Ecclesia, tenens et docens, quod in ipso sacramento panis vere transsubstantiatur in corpus et vinum in sanguinem Domini nostri Iesu Christi. De matrimonis vero

tenet, quod nec unus vir plures uxores simul, nec una mulier permittitur habere plures viros. Soluto vero legitimo matrimonio per mortem coniugum alterius, secundes et tertias deinde nuptias successive licitas esse dicit : si impedimentum canonicum aliud ex causa aliqua non obsistat.

Ipsa quoque sancta Romana Ecclesia summum et plenum primatum et principatum super universam Ecclesiam Catholicam obtinet; quem se ab ipso Domino in beato PETRO Apostolorum principe sive vertice, cuius Romanus Pontifex est successor, cum potestatis plenitudine recepisse veraciter et humiliter recognoscit. Et sicut prae ceteris tenetur pidei veritatem defendere : sic et si que de fide subortae fuerint quaestiones, suo debent iudicio definiti. Ad quam potest gravatus quilibet super negotiis ad ecclesiasticum forum pertinentibus appellare : et in omnibus causis ad examen ecclesiasticum spectantibus ad ipsius potest indicium recurri : et eidem omnes ecclesiae sunt subiectae, ipsarum praelati oboedientiam et reverentiam sibi dant. Ad hanc autem sic potestatis plenitudo consistit, quod ecclesias ceteras ad sollicitudinis partem admittit; quarum multas et patriarchales praetipue diversis privilegiis eadem Romana Ecclesia honoravit, sua tamen observata praerogativa tum in generalibus Conciliis, tum in aliquibus aliis semper salva.

أسرة باليولوغوس
١٢٦١ – ١٤٥٣ م

ميخائيل الثامن
١٢٦١ – ١٢٨٢

(زوجة ثانية ايريني من مونت فرات) اندرونيكوس الثاني (زوجة أولى أنّا من هنغاريا) ١٢٨٢ – ١٣٢٨

ميخائيل التاسع (زوجته : اكزنيا – ماريا) ١٢٩٥ – ١٣٢٠

اندرونيكوس الثالث (زوجته أنّا من سافوى) ١٣٢٨ – ١٣٤١

(زوجته هلين ابنة يوحنا السادس) يوحنا الخامس ١٣٤١ – ١٣٩١ (شاركه في الحكم يوحنا السادس كانتاكيوزينوس من ١٣٤١ – ١٣٥٤)

(زوجته هيلين المقدونية) مانويل الثاني ١٣٩١ – ١٤٢٥

اندرونيكوس الرابع ١٣٦٩ – ١٣٧٦

توماس

دمتريوس

يوحنا الثامن ١٤٢٥ – ١٤٤٨

قسطنطين الحادي عشر ١٤٤٩ – ١٤٥٣ (السقوط النهائي للقسطنطينية)

الفرنجة في بلاد اليونان

١ ــ أمراء آخايا

١	ـ وليم دى شامبليت	١٢٠٥ م
٢	ـ جيوفرى الأول دى فلهاردوان	١٢٠٩ م
٣	ـ جيوفري الثاني دى فلهاردوان	١٢١٨ م
٤	ـ وليم دى فلهاردوان	١٢٤٦ م
٥	ـ شارلس الأول من أنجو	١٢٧٨ م
٦	ـ شارلس الثاني من أنجو	١٢٨٥ م
٧	ـ ايزابيل دى فلهاردوان	١٢٨٩ م
	مع فلورنت من هينوه	١٢٨٩ م
	مع فيليب من سافوى	١٣٠١ م
٨	ـ فيليب الأول من تارانتو	١٣٠٧ م
٩	ـ ماتيلدة من هينوه	١٣١٣ م
	مع لويس من برغنديا	١٣١٣ م
١٠	ـ يوحنا من جرافينا	١٣١٨ م

١١ – كاترين من فالوا	١٣٣٣ م
روبرت من تارانتو	
١٢ – روبرت من تارانتو	١٣٤٦ م
١٣ – ماري دى بوربون	١٣٦٤ م
١٤ – فيليب الثاني من تارانتو	١٣٧٠ م
١٥ – جوانا من نابلي	١٣٧٤ م
١٦ – أوتو من برونزويك	١٣٧٦ م
١٧ – فرسان القديس يوحنا	١٣٧٧ – ١٣٨١ م
١٨ – جاك دى بوه	١٣٨١ م
١٩ – ماهيو دى كوكرل	١٣٨٣ م
٢٠ – بوردو دى سان سوبيران	١٣٨٦ م
٢١ – ماريا زكريا	١٤٠٢ م
٢٢ – سنتريوني زكريا	١٤٠٤ – ١٤٣٢ م

٢ ـ أدواق أثينا

١ ـ أوتون دى لاروش	١٢٠٥ م
٢ ـ جي الأول	١٢٢٥ م
٣ ـ يوحنا الأول	١٢٦٣ م
٤ ـ ولـيم	١٢٨٠ م
٥ ـ جي الثاني	١٢٨٧ م
٦ ـ والتر دى بريين	١٣٠٩ م
٧ ـ روجردزلاور (رئيس فرقة القطلان)	١٣١١ م
٨ ـ مانفريد	١٣١٢ م
٩ ـ ولـيم	١٣١٧ م
١٠ ـ يوحنا من رنداتزو	١٣٣٨ م
١١ ـ فردريك من رنداتزو	١٣٤٨ م
١٢ ـ فردريك الثالث من صقلية	١٣٥٥ م
١٣ ـ بطرس من أرغونة	١٣٧٧ م
١٤ ـ يوحنا الأول من أرغونة	١٣٨٧ م
١٥ ـ نريو أكساجيولي	١٣٨٨ م
١٦ ـ البندقية	١٣٩٤ ـ ١٤٠٢ م
١٧ ـ انطونيو الأول	١٤٠٢ م

١٨ — نيريو الثاني	١٤٣٥ م
١٩ — انطونيو الثاني	١٤٣٩ م
٢٠ — نريو الثاني (للمرة الثانية)	١٤٤١ م
٢١ — فرنسيسكو	١٤٥١ م
٢٢ — فرانكو	١٤٥٥ — ١٤٥٦ م

٣ – المستعمرات التي خضعت للبندقية

١ – مودون	من	١٢٠٦ – ١٥٠٠ م	
٢ – كورون	«	١٢٠٦ – ١٥٠٠ م	
٣ – ارجوس	«	١٣٨٨ – ١٤٦٣ م	
٤ – نوبليا	«	١٣٨٨ – ١٥٤٠ م	
٥ – مونمفاسيا	«	١٤٦٤ – ١٥٤٠ م	
٦ – ليبانتو	«	١٤٠٧ – ١٤٩٩ م	
٧ – نجروبونت	«	١٢٠٩ – ١٤٧٠ م	
٨ – پتليون	«	١٣٢٣ – ١٤٧٠ م	
٩ – ايجينا	«	١٤٥١ – ١٥٣٧ م	
١٠ – تينوس	«	١٣٩٠ – ١٧١٥ م	
١١ – ميكونوس	«	١٣٩٠ – ١٥٣٧ م	
١٢ – شمالي سپوراديز	«	١٤٥٣ – ١٥٣٨ م	
١٣ – كورفو	«	١٢٠٦ – ١٢١٤ م	/ ١٣٨٦ – ١٧٩٧ م
١٤ – كيفالونيا	«	١٤٨٣ – ١٤٨٥ م	/ ١٥٠٠ – ١٧٩٧ م
١٥ – زانتي	«	١٤٨٢ – ١٧٩٧ م	
١٦ – سريجو	«	١٣٦٣ – ١٧٩٧ م	
١٧ – سانتا ماڤرا	«	١٥٠٢ – ١٥٠٣ م	

١٨ — أثينا « ١٣٩٤ — ١٤٠٢ م

١٩ — پاتراس « ١٤٠٨ — ١٤١٣ م / ١٤١٧ — ١٤١٩ م

٢٠ — ناكسوس « ١٤٩٤ — ١٥٠٠ م / ١٥١١ — ١٥١٧ م

٢١ — اندروس « ١٤٣٧ — ١٤٤٠ م / ١٥٠٧ — ١٥١٤ م

٢٢ — پاروس « ١٥١٨ — ١٥٢٠ م / ١٥٣١ — ١٥٣٦ م

٢٣ — $\frac{١}{٤}$ أمورجوس « ١٣٧٠ — ١٤٤٦ م

٢٤ — ماينا « ١٤٦٧ — ١٤٧٩ م

٢٥ — قوستنزا ١٤٧٠ م

المراجع والمصادر

أولا باللغة العربية :

١ ـ القلقشندي ، أبو العباس محمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الانشاء القاهرة ١٩٦٣ .

٢ ـ الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداوي ، فؤاد عبد المعطي الصياد ، راجعه يحي الخشاب . القاهرة ١٩٦٠ .

ثانيا بلغات أجنبية :

— Blemmydes, Nicephorus. Curriculum vitae et carmina. Ed. Heisenberg, A. Leipzig, 1896.

— Buchon, J.A. Nouvelles recherches sur la principauté française de Morée et ses hautes baronnies fondées à la suite de la quatrième croisade, pour servir de complément aux éclairissements historiques, génealogiques et numismatiques sur la principauté française de Morée. Paris, 1843-45.

— Canard, M. « Le Traité de 1281 entre Michel Paléologue et le sultan Qalâ'ûn, Byzantion, X (1935). « Un Traité entre Byzance et l'Egypte au XIIIe siècle et les relations diplomati-

ques de Michel VIII Paléologue avec les sultans Mamlûks Baibars et Qalâ'ûn », Mélanges Gaudefroy-Demombynes, Cairo, 1937.

— Cantacuzene, John. Historiae (Bonn ed.).

— Carabellese, F. Carlo d'Angiô nei rapporti politici e commerciali con Venezia e l'Oriente. Bari, 1911.

— Chapman, C. Michel Paléologue restaurateur de l'empire byzantin (1261 - 1282). Paris, 1926.

— Chekrezi, C. Albania : Past and Present. New York, 1919.

— Dandolo, Enrico. Cronaca Veneta, apud Muratori, L. A. (Rerum Italicarum Scriptores.) Milan, 1728.

— Diehl, C. Figures byzantines. Paris 1906-8.

— Durrieu, P. Les Archives angevines de Naples. Etudes sur les registres du roi Charles 1er. (Bibliothèque des écoles françaises d'Athènes et de Rome, XLVI.) Paris, 1886.

— Ebersolt, J. Orient et occident. Recherches sur les influences byzantines et orientales en france pendant les croisades. Paris, 1928-29.

— Florinsky, T.D. The Southern Slavs and Byzantium in the Second Quarter of the Fourteenth Century. Vols. I-II - St. Petersburg, 1882.

— Gibbons, H.A. The Foundation of the Ottoman Empire. Oxford, 1916.

— Gill, J. The Council of Florence. Cambridge, 1961.

— Gregoras, Nicephorus. Historia Byzantina. Ed. Schopen, L. (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.) Bonn, 1829-35.

— Grousset, R. Histoire d'Asie. III. Le Monde mongol. Paris, 1922.

— Hefele, K. J. von. Histoire des conciles. Ed. Leclercq, C. Paris, 1907-ff.

— Heyd, W. Histoire du commerce du Levant au moyen âge, Leipzig, 1885. Reprint, 1936.

— Jirecek, C. Geschichte der Bulgaren. Prague, 1876.

— Jordan, E. Les Origines de la domination angevine en Italie, Paris, 1909.

— Juvaini, Ata-Malik. The History of the World Conqueror. (Translated from the Text of Mirza Muhammed Quazvini into English by John Andrew Boyle.)

— Koprulu, M.F. Les Origines de l'empire Ottoman. Paris, 1935.

— Lamansky, V.I. The Slavs in Asia Minor, Africa and Spain. St. Petersburg, 1859.

— Lane-Poole, S. A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.

— Langer, E.L. & Blake, R.P. « The Rise of the Ottoman Turks and its Historical background. » American Historical Review, XXXVII (1932).

— Laurent, V. « La généralogie des premiers Paléologues, » Byzantion, VIII (1933).
« Deux nouveaux manuscrits de l'histoire byzantine de Georges Pachymère », Byzantion, XI (1936).
« Grégoire X (1271-76) et le projet d'une ligue antiturque, » Echos d'Orient, XXXVII (1938).

— Mansi, Joannes Dominicus. (Ed.) Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio. 31 vols. Florence and Venice, 1758-98.

— Migne, J.P. (Ed.) Patrologia Graeca. Paris, 1866.

— Miller, W. The Catalans at Athens. Rome, 1907. The Latins in the Levant. A History of Frankish Greece (1204-1566).

— Nikov, P. Tartaro-Bulgarian Relations in the Middle Ages. Sofia, 1921.

— Palaeologus, Michael. De vita sua opusculum, Greek text and Russian translation in Christanskoe Ctenie. St. Petersburg, 1885, II. French translation in Chapman, C. Michel Paléologue, restaurateur de l'Empire Byzantin (1261-1282). Paris, 1926.

— Pachymeres, George. De Michaele Palaeologo, De Andronico Palaeologo. Ed. Bekker, I. (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.) Bonn, 1835.

— Phrantzes, George. Annales. Ed. Bekker, I. (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.) Bonn, 1839. Ed. Pappadopoulos, J.B.I. Leipzig, 1935.

— Rubio y Lluch, A. « Atenes en temps dels Catalans », Anuari de l'Institut d'Etudis Catalans, I (1907).
Los Catalanes en Grecia : Ultimos anos de su Dominacion : Caudros historicos. Madrid, 1927.

— Runciman, S. A History of the First Bulgarian Empire. London, 1930.
The Great Church in Captivity. Cambridge, 1968.

— Setton, K.M. Catalan Domination of Athens 1311-1388. Cambridge, Mass., 1948.

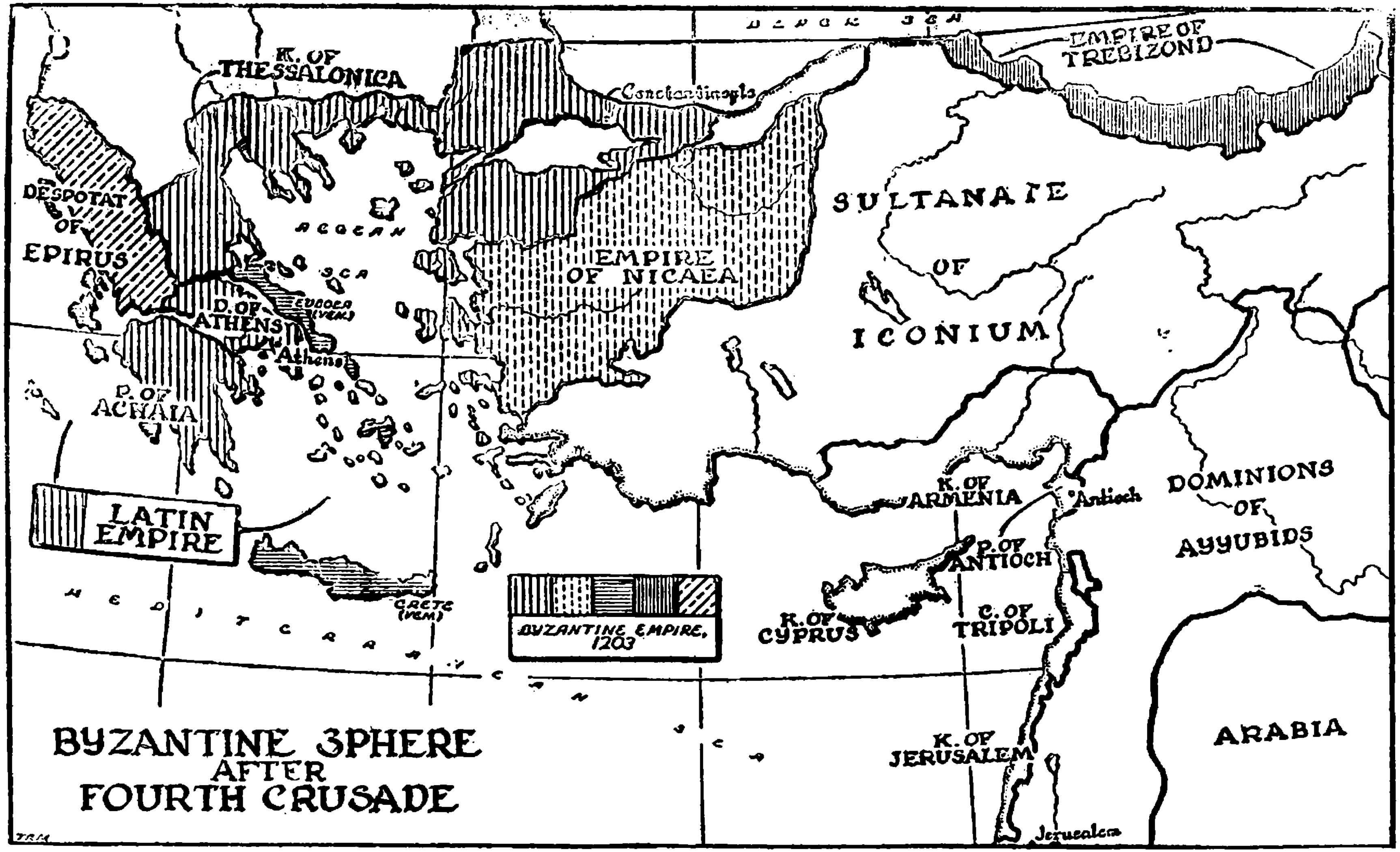
— Smith, D.M. A History of Medieval Sicily 800-1713. London, 1969.

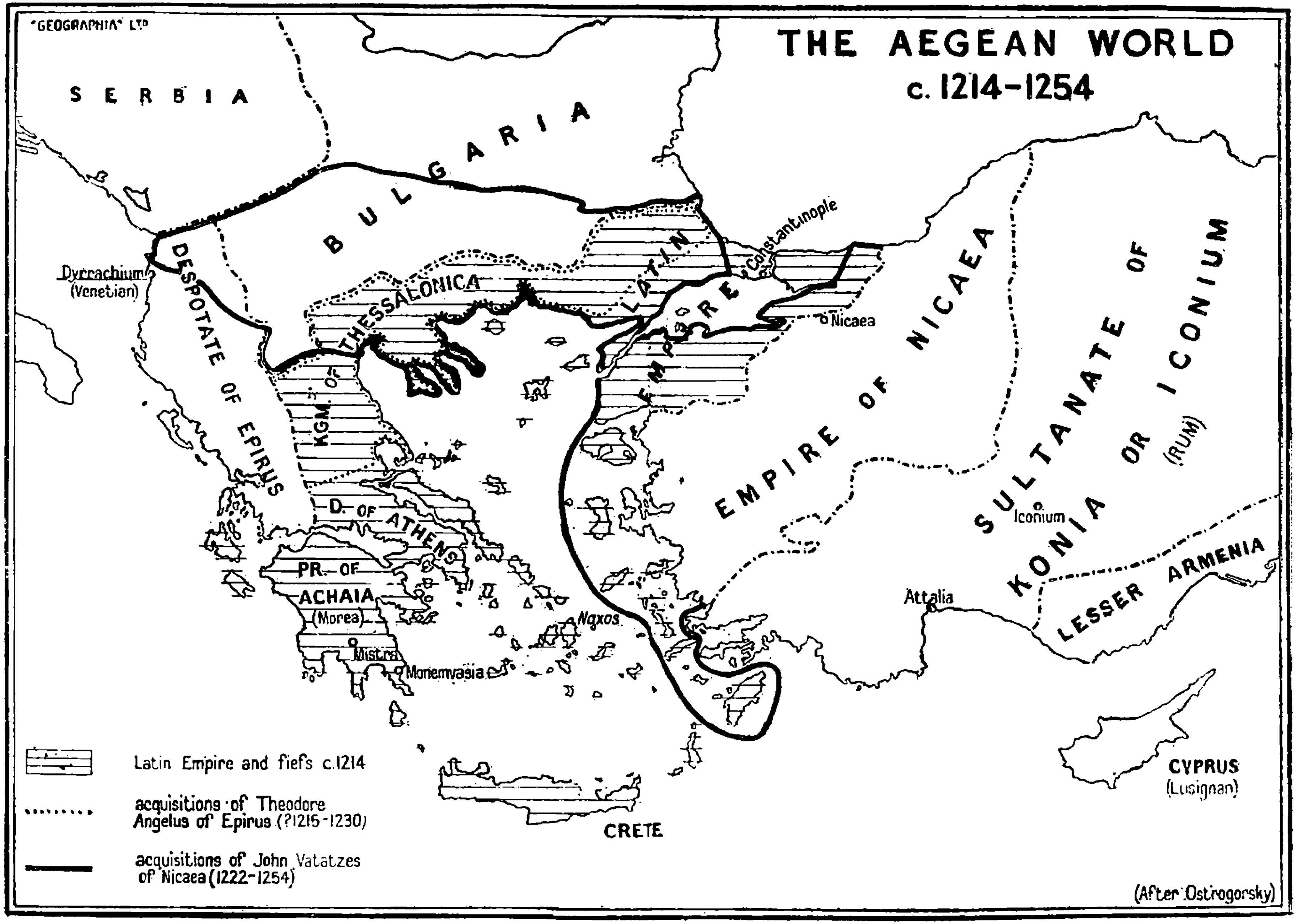
— Schlumberger, G. Byzance et Croisades. Paris, 1927.
Le Siège, la prise et le sac de Constantinople par les Turcs en 1453. Paris, 1915.

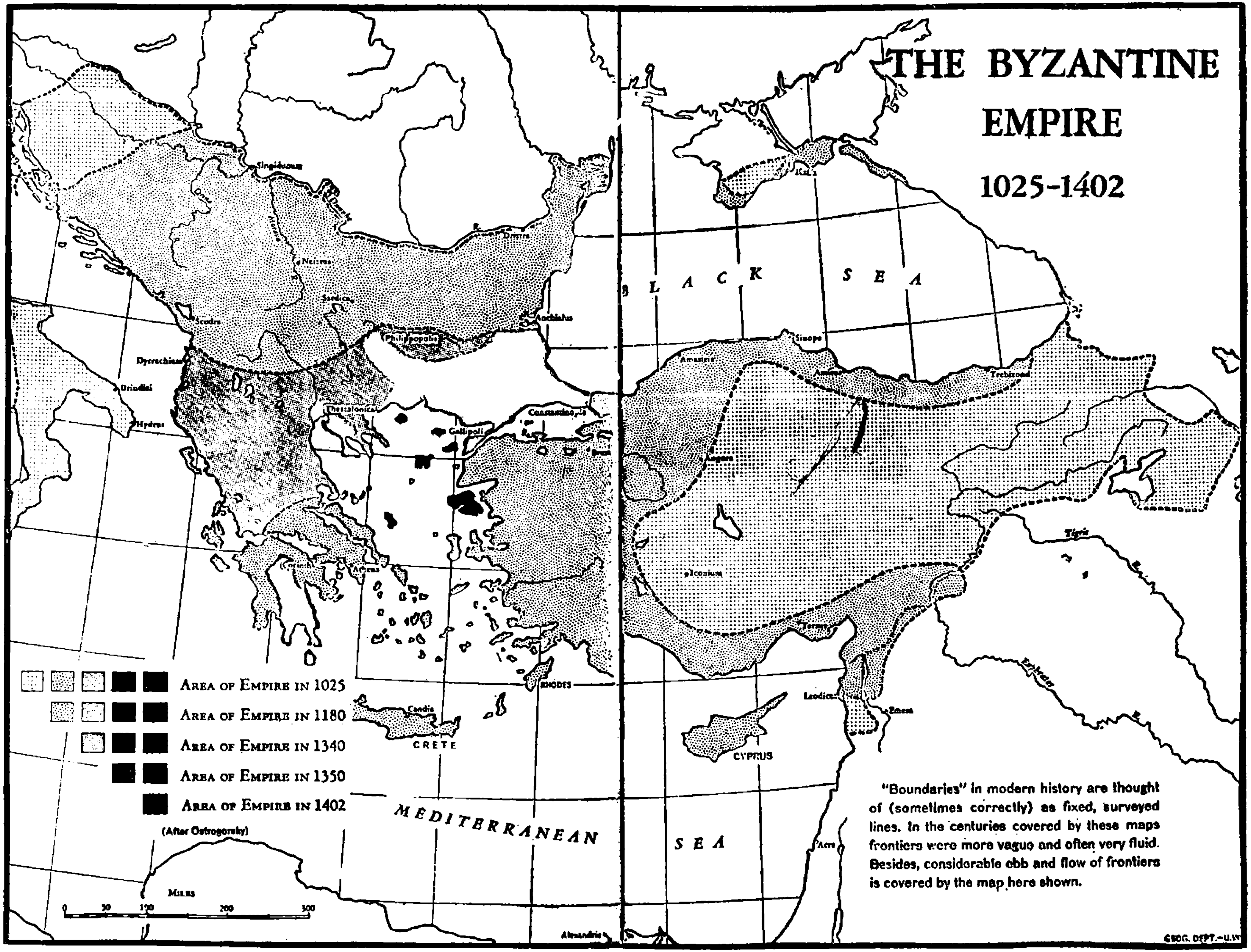
— Uspensky, Th. I. « Byzantine Historians on the Mongols and Egyptian Mamluks, » Vizantiysky Vremennik, XXIV (1923-26)

— Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire. 2 vols. Wisconsin, 1952.

— Vernadsky, G. « The Golden Horde, Egypt and Byzantium in their Mutual Relations in the Reign of Michael Palaedogues. » « Annales de l'Institut Knodakov, I (1927).


K. OF THESSALONICA
Constantinople
EMPIRE OF TREBIZOND
DESPOTAT OF EPIRUS
AEGEAN SEA
EUBOEA (VEN.)
D. OF ATHENS
Athens
P. OF ACHAIA
EMPIRE OF NICAEA
SULTANATE OF ICONIUM
LATIN EMPIRE
CRETE (VEN.)
BYZANTINE EMPIRE, 1203
K. OF ARMENIA
Antioch
P. OF ANTIOCH
K. OF CYPRUS
C. OF TRIPOLI
K. OF JERUSALEM
Jerusalem
DOMINIONS OF AYYUBIDS
ARABIA
BYZANTINE SPHERE AFTER FOURTH CRUSADE


"GEOGRAPHIA" LTD
THE AEGEAN WORLD
c. 1214-1254
SERBIA
BULGARIA
Dyrrachium
(Venetian)
DESPOTATE OF EPIRUS
THESSALONICA
KGM. OF
LATIN EMPIRE
Constantinople
Nicaea
EMPIRE OF NICAEA
SULTANATE OF KONIA OR ICONIUM
(RUM)
Iconium
D. OF ATHENS
PR. OF ACHAIA
(Morea)
Mistra
Monemvasia
Naxos
Attalia
LESSER ARMENIA
CRETE
CYPRUS
(Lusignan)
Latin Empire and fiefs c.1214
acquisitions of Theodore Angelus of Epirus (?1215-1230)
acquisitions of John Vatatzes of Nicaea (1222-1254)
(After Ostrogorsky)


THE BYZANTINE EMPIRE
1025-1402
BLACK SEA
MEDITERRANEAN SEA
CRETE
CYPRUS
RHODES
Singidunum
Scodra
Sardica
Anchialus
Philippopolis
Dyrrachium
Brindisi
Hydrus
Thessalonica
Gallipoli
Constantinople
Corinth
Candia
Sinope
Amastris
Trebizond
Iconium
Laodicea
Emesa
Acre
Alexandria
Tigris R.
Euphrates R.
Area of Empire in 1025
Area of Empire in 1180
Area of Empire in 1340
Area of Empire in 1350
Area of Empire in 1402
(After Ostrogorsky)
Miles
0
50
100
200
300
"Boundaries" in modern history are thought of (sometimes correctly) as fixed, surveyed lines. In the centuries covered by these maps frontiers were more vague and often very fluid. Besides, considerable ebb and flow of frontiers is covered by the map here shown.
GEOG. DEPT.-U.W.